ميخائيل نعيمه

ميخائيل نعيمه

زاد المعاد







زاد المعاد



ميخائيل نعيمه

زاد المعاد



الطبعة التاسعة
١٩٨٥



الخيال

ألقيت بالإنكليزية في « وست هول » من الجامعة الأميركية في بيروت تحت رعاية جمعية « ستودنتس يونيون » (اتحاد الطلاب) في ٢١ شباط سنة ١٩٣٣ . وقد نشرت الجمعية الأصل الإنكليزي على حدة في كراس .

كأني بكم ، عندما كلّفتموني الخطابة ، حسبتم أن عندي لكم عطيّة .

لا . ليس في مستطاعي ، ولا في مستطاع أيّ إنسان ، أن يعطيكم شيئاً . لأنّ لكم الكون وكلّ ما فيه . فكما أنّ في بذرة الأرز الصغيرة تنطوي كلّ أسرار الأرزة الكبيرة التي ولدتها ، هكذا انطوت فيكم كلّ أمجاد القدرة التي بعثتكم من اللاوجود إلى الوجود . ومثلما أنّه يستحيل عليكم أن تفكروا بزمان لم تكن تلك القدرة فيه ، كذلك يستحيل عليكم أن تفكروا بزمان لم تكونوا فيه .

لأنّكم كنتم في ضمير الله دهوراً بلا عدّ من قبل أن تكونوا ما أنتم اليوم . على حدّ ما كانت بقايا أرز لبنان الحاضرة

في أوّل أرزة طرحت ظلّها على الأرض أحقاباً طويلة من قبل أن سَمِعَتْ ولولة الرياح في وادي قاديشا .

فأنتم سرمديّون كالقدرة التي من رحمها انبثقتم . وفيكم كلّ أسرارها . إذنْ حَذَارِ من الذين ينادونكم من أعالي السطوح : « ها نحن مثقلون بالهدايا . تعالوا وخذوا منّا ! » حذارِ من هؤلاء لأنّهم أنبياء كذَبة . وليس لديهم من عطايا سوى أوهامهم .

جُلّ ما يستطيع إنسان ، أو شيء ، فعله من أجلكم هو أن يمزّق الأقنعة التي تعميكم عمّا تملكون ، لا أن يعطيكم فوق ما تملكون . ومَثَل الناس ، من هذا القبيل ، مثل رجل يفتش عن نظّارتيه حين أنّهما على أنفه . إنّ ما يحتاجه رجل كهذا ليس نظّارتين فوق نظارتيه بل إصبع تدلّهُ على النظّارتين اللّتين على أنفه .

لا يهتمّنّ أحدكم بما يملك مخافة أن يُسلب منه . فليس في إمكان إنسان أن يحرمكم ميراثكم — حتى ولا اليد التي أعطتكم ما تملكون تستطيع أن تزيد فيه أو أن تنقص منهُ مثقال ذرة .

ولا تهتمّوا بمن سيقودكم إلى ميراثكم . فأنامل الحياة الخفيّة تدلّكم عليه في كلّ لحظة من يقظتكم ومنامكم . وإمّا عميتم عنهُ فلأن العين الوحيدة المبصرة فيكم ما تزال

مغشاة بأغشية كثيفة .

تلكم العين هي الخيال .

إني لأرجو ألاّ يكون بينكم كثير من الذين تخيفهم كلمة « الخيال » ، والذين يعتقدون أن لا محلّ لها إلاّ في قواميس الشعراء والفنّانين والسحرة .

فما هو الخيال ؟

هو مقدرتكم أن تبصروا وأجفانكم مغمضة ؛ وتسمعوا وآذانكم مسدودة ؛ وتشمّوا وفي أنوفكم سِطام ؛ وتذوقوا وألسنتكم في غلاف ؛ وتلمسوا وأيديكم مشلولة . هو مقدرتكم أن تُدركوا حدود الحواس الخارجيّة فتجعلوا منها عبّارة تجتازون بواسطتها إلى حيث لا حدود .

الخيال هو المشعل وحامل المشعل في دياجير الجهل من حولنا . هو الطريق والهادي إلى الطريق في مهمه الوجود اللامتناهي . هو الدليل الأوحد إلى الحقيقة . كلّ ما تتخيّلونه كائن . وكلّ ما لا تتخيّلونه لا كيان له .

لن تستطيعوا أن ترودوا آفاق كيانكم الذي لا حدّ لهُ ، وتبصروه وحدةً كاملة ، إلاّ متى اشتدّ خيالكم وكانت له قوادم جبّارة تهزأ بأعاصير الحسّ . وحتى يكون لكم خيال كذلك الخيال لن تبصروا إلاّ نتفاً مبعثرة من العالم الشاسع الذي هو أنتم . وعالمكم إذ ذاك عالم مبتور ومشوّه أبداً .

أمّا العقل الذي يغالي النّاس في تكريمه فليس سوى ولد جموح يقوده الخيال من أنفه ولكن قلّما يمشي به بعيداً . فاحذروا من أن تُلقوا كل اتكالكم عليه . أوَما ترونه يجهد ذاته بغير انقطاع ، وبغير جدوى ، في تفهّم أسرار الكون ، وهو ما يزال في جهده كالولد الذي أعطيتموه أكداساً من الوريقات الملوّنة وأمرتموه أن يركّب منها صورة حيوان أو إنسان ؟

أوَما ترونه لا ينفكّ يضع هذه الوريقة بجانب تلك ، وهاتيك فوق هذه ، ثمّ يعود فيغيّر مواضعها ، وحتى اليوم لم تستقم له صورة كاملة لا لحيوان ولا لإنسان ؟ فصورته أبداً مبتورة الرأس والذنَب ، وأعضاؤها الحيويّة لا تستقرّ على حال لكثرة ما ينتابها من التنقيل والتبديل .

لا يفتأ العقل يرسم الخرائط للطرق التي تسلكها الحواسّ طمعاً بأن يؤلّف منها خريطة كاملة للكون الكامل . وهو ماضٍ في عمله بجدّ لا يعرف الملل ، وصبر لا نفاد له . لا تفوتهُ عطفة واحدة في الطريق ، ولا مرتفع أو منخفض ، ولا شجرة أو ساقية . ولا يسهو عن باله أن يقيم الدلائل ويثبت العلامات الفاصلة على جوانب الطريق . لكنه ما إن ينتهي من خريطته ويلتفت إلى الوراء ليغتبط بجمال عمله ودقّة فنّه حتى يرى أن « يداً خفيّة » قد عبثت بدلائله

وعلاماته ، فنصّبت جبلاً منيعاً حيث كان في خريطته وادٍ عميق ، وبسطت بحرةً هادئة حيث كانت في خريطته غابة مدغلة .

غير أن العقل لا يقنط . فهو لا يعتّم أن يتناول قلمه من جديد ، وبكلّ تدقيق يأخذ في تصحيح خريطته بالحبر الأحمر . ولا يكاد ينتهي من تصحيحه ويعلن خريطته خالية من كلّ نقص حتّى يعود ، بعد حين ، ويلتفت إلى الوراء فيجد النقص فيها قد تفاقم . فيعكف على تصحيحها من جديد . وما ذاك إلاّ لأن الطرق التي يحاول أن يرسم خرائطها تمرّ كلّها في صحارى الاختبارات الحسيّة حيث الرمال تنتقل أبداً من مكان إلى مكان ومن حال إلى حال .

يدأب العقل بغير انقطاع في الأودية المكتظة بأشباح الحواس المظلمة . يتعثّر هنا ، ويدبّ هناك ، ولا ينتهي إلى شيء . أمّا الخيال فبلمحة الطرف يطوف القمم المشرفة على تلك الأودية . وكومضة البرق ينير بلحظة أرجاء فسيحةً من الحقيقة حيث العقل يتلمّس سبيله وفي يده الواحدة عصاً كسحاء ، وفي الأخرى سراج بلا زيت .

لقد ينفق العقل أعماراً عديدة في درس مختلف النبات . فيفهرس أسماءها ، ويبوّب مواطنها ، ويحصي أشكالها وألوانها ، ويظلّ ، مع ذلك ، لا يعرف عنها شيئاً لأنّه قاصر عن أن

يرى نسبته إليها ونسبتها إلى الخليقة بأسرها .

أمّا الخيال فقد يحطّ على وريقة من العشب فتنكشف له فيها أسرار كلّ نبتة ، بل وروح المسكونة قاطبة . فهل من حاجة به إلى الفهارس والجداول ؟

إن تكن سبل العقل ، كما يزعم الكثير من الناس ، هي السبل الوحيدة إلى الحقيقة ، فأين هو الإنسان الذي في وسعه أن يقطعها كلّها في خلال عمر واحد ؟

أين هو الإنسان الذي في مستطاعه أن يستوعب في سبعين سنة كلّ خرائط العقل التي ندعوها علوماً كالرياضيات والطبيعيات والكيمياء والبكتريولوجيا وطبقات الأرض والنبات والحيوان والطبّ والفلك وسواها وسواها من علوم هذا الزمان الكثيرة ؟

إن يكن كلّ علم من علوم الناس قد كشف عن جزء من الحقيقة فكيف لي ولكم أن نعرف كلّ هذه الأجزاء ونضمّها بعضها إلى بعض لنصل إلى الحقيقة كلّها ؟ أم أنّ الحقيقة أمرٌ لا ثبات لهُ — أمر يتغيّر ، ويتبدّل ، ويتجزّأ ؟

كلاّ ثمّ كلاّ ! إنّما الحقيقة واحدة — كانت وكائنة وباقية إلى الأبد . والحقيقة لا تنمو ولا تشيخ ، ولا تزيد ولا تنقص . وهي ليست هنا أو هناك أو في هذا الشيء أو ذاك . بل هي في كلّ مكان وفي كلّ شيء . وليس فيكم

منها أكثر ممّا في سواكم . بل هي في الكلّ بدرجة واحدة . إلاّ أنّها لا تزال مكفنة فيكم بأكفان عديدة حاكها العقل على منوال الحواس الخادعة والمخدوعة . لكنّ الزمان طويل . ولا بدّ من أن يأتيكم يوم يمزّق فيه خيالكم تلك الأكفان فيظهركم لأنفسكم حقيقة عارية من كلّ ثوب .

قد تقولون : « إن هذا الرجل يثير حرباً على العقل . وليس يحيا بغير عقل إلاّ المجانين . أتراه يدعونا إلى الجنون ؟ »

ألا انظروا إلى أجسادكم كيف أنّها ، في تدرّجها البطيء إلى شكلها الحاضر ، قد استغنت عن أعضاء كثيرة كانت ضروريّة لها وحيويّة في سالف الأحقاب . هكذا الروح فيكم كلّما تفتّقت عنه أكمام الحواس نبذ ، وسينبذ ، قوى تحسبونها اليوم عريقة فيه ، لازمة له . والعقل في جملة تلك القوى .

إن الذين خيالهم ما يزال في اللفائف لا بأس عليهم لو هم أرضعوه من ثدي العقل . سيكبر الطفل ويشتدّ وينتهي بأن يحمل أمّه يوماً ما على ظهره إلى المقبرة .

والذي لا عكّاز لهُ يتوكّأ عليهِ غير عقله دعوه يتوكّأ على عقله . فخير له أن يكون أعرج من أن يكون كسيحاً . أمّا الذين نمت أجنحة خيالهم واشتدّت ، واستطالت قوادمها وصلبت ، فلهم أقول : « ألا أطلقوا خيالكم من أقفاص

العقل وحلّقوا معهُ حيثما حلّق بكم وعندئذ تجدون أن ليس في الكون أرجاء إلاّ ولكم فيها أثر . وعندئذ تلمسون أنفسكم في كلّ ما تلمسون ، وتبصرون أنفسكم في كل ما تبصرون . وعندئذ تتذوّقون نشوة المعرفة بأنّكم والحياة بأسرها وحدة لا تتجزّأ . »

إنّ خيالاً كهذا لهو القدرة الوحيدة التي في استطاعتها أن تحرّركم من مدارس الحواس التي لا علْم فيها ، ومن مطابخها التي لا غذاء فيها ، ومن حوانيتها التي لا كسب فيها .

لو كان لكم مثل هذا الخيال لما عرفتم الوجدة ولا الوحشة . فأنتم لو جلستم وحدكم على صخرة في قفر ، وكان لكم خيال ، لوجدتم قوافل السنين وأحشاد العناصر التي تعاونت في تكوين تلك الصخرة متكئة عليها بجانبكم . وإمّا مسستموها بأذيالكم مسستم غبار كواكب لا تحصى ، وأجنحة طيور لا تُعَدّ ، ورمال بحار كثيرة حتى وعظام أسلافكم ، بل وعظامكم في أعمار سابقة — إن كنتم من المؤمنين بالتقمص . وإمّا أرهفتم آذانكم سمعتم زحف أقدام الرياح على الصخرة ، وترانيم جميع الأجواق المجنّحة التي استقرت عليها منذ تكوينها حتى الساعة . وإمّا جسستموها بأيديكم وجدتموها ، على كل ما فيها من صلابة ظاهرة ، ألين في يد الله من العجين في يد العجّان ، وأطوع من القوس في يد الرامي .

كذلك لو مشيتم في طريق مجدبة من الرفاق ، وكان لكم خيال ، لواكبتكم جماهير النّاس والبهائم التي سلكتها من قبلكم ، ولسمعتم أهازيجهم وأنّاتهم ، ولأبصرتم هداياهم وأوقارهم .

ولو أنّكم اضطجعتم في مخدعكم ، وكان ليلكم طويلاً ولا سُمّار ، لمدّ خيالكم الطليق يده إلى دراري الجلد ورصّع بها سقف مخدعكم وجدرانه ، ثمّ جاءكم على أجنحة النسيم بكل أحلام البشريّة المستيقظة والنائمة كيما تكون لأجلامكم سُمّاراً .

لو كان لكم مثل هذا الخيال لعرفتم أن لا فواصل بينكم وبين شيء في العالم إلاّ الفواصل التي تقيمها أوهام الحسّ . فأنتم تخطئون كلّما حسبتم أن هناك أموراً مختصّة بكم دون غيركم ولا شأن فيها لسواكم .

أمّا الخيال فيعلّمكم أن لكلّ إنسان ، ولكلّ خنفساء ، ولكل ذرّة رمل ، ولكلّ ما يؤلّف الكون الأكبر شأناً في كل ما تعملون وتشتهون وتفكرون . فما انطلق في الكون صوتٌ إلاّ كان نوطة في ترنيمة الحياة العامة . ولا فكرٌ إلاّ كان خيطاً في نسيج الفكر الكوني . ولا شهوة إلاّ كانت مويجة على سطح أوقيانوس الشهوات المشتركة .

والخيال يعلّمكم أن الأموات لم يموتوا . فها هي أشواقهم

وأحلامهم ، أفراحهم وأتراحهم ، لعناتهم وبركاتهم لا تزال منبثة في الهواء الذي تتنفّسون وفي محيط الرغائب والأفكار الذي منه تستمدّون رغائبكم وأفكاركم . والخيال يعلّمكم أن الذين لم يولدوا بعدُ هم الآن معكم وبينكم . فكلّ الأغداء إنّما هيَ الآن هاجعة في حضن هذا اليوم .

وإذ ذاك لعلّكم تعكفون على أنفسكم فتناقشونها الحساب عن كلّ فكر ، وكلّ كلمة ، وكلّ رغبة ، حتى وعن كلّ نسمة من الهواء تُدخلونها صدوركم أو تخرجونها منها . عالمين أن ذلك كلّه سيعود حتماً إليكم ، إن لم يكن اليوم فبعد اليوم ، مثلما تعود حتماً إلى البحر كلّ قطرة خرجت منه ، حتى التي سجنتها الأقدار في قلب بلّورة دفينة في التراب . ولعلّكم إذ ذاك تعرفون أن فيكم كلّ ينابيع آلامكم وملذاتكم لأنكم لا تلتقطون من الحياة إلاّ الذي « تذيعون » .

من أجل ذلك أقول لكم : إذا ما نسجتم كساء لإنسان فحذارِ من أن تنسجوا فيه حتى خيطاً واحداً من بغضائكم . لأنّه ، وإن تستّر به بدنٌ غير أبدانكم ، سيخدش ظهوركم .

وإذا ما خبزتم رغيفاً ليباع في السوق فحذارِ من أن تخبزوا فيه ذرّة واحدة من حسدكم . لأنّهُ ، وإن مضغتهُ أسنان غير أسنانكم ، سيكون غصّة مُرّة في حلاقيمكم .

وإذا ما حمّلتم الأثير فكراً من أفكاركم ، فحذارِ من أن

تكون فيه لعنة . لأنّها ، وإن ولجت آذاناً غير آذانكم ، ستكون وباءً لأحلامكم .

لا تسألوا الخيال أن يُثبت لكم ذاتهُ بحجّة أو ببرهان . إنّهُ الحجّة والبرهان لذاته .

لا تسألوا محمّداً برهاناً عن جبريله . فلو كان لكم خيال مدوزن لسماع أنغام الوجود العلويّة لسمعتم أنتم كذلك جبريلكم .

ولا تسألوا يسوع حجّة عن أبيه السماوي . فلو كان لكم خيال يسبر الأغوار ويتسلّق الأعالي التي سبرها وتسلّقها خياله لأبصرتم أنتم كذلك أباه السماوي . ولا تسلوه كيف ردّ البصر للعميان ، والنشاط للمقعدين ، والحياة للأموات . فعندما تتعلّمون كيمياء الخيال ، مثلما تتعلّمون كيمياء الحسّ ، يصبح في مستطاعكم أنتم كذلك أن تجعلوا العميان يبصرون ، والمقعدين يمشون ، والأموات يستردّون أنفاسهم المخنوقة لا بإعطائكم إيّاهم البصر والنشاط والتنفّس ، بل بإيقاظكم في خيالهم تلك القوى التي تخلق البصر والنشاط والتنفّس .

كذلك لا تسألوا السامريّ لماذا ضمد جراح الإسرائيليّ الذي انقضّ عليه لصوص في الطريق وتركوه بين ميت وحيّ ، والذي لم يرقّ لحاله أحد حتى من أبناء ملّته . فأنتم لو كان لكم خيال يقظ كخيال السامري لأدركتم ، مثلما أدرك ،

أنّكم حرّاس لإخوانكم في النّاسوت ؛ وأن جرحاً في جسد إنسان ، أيّاً كان وأينما كان ، هو جرح في أجسادكم ؛ وأنّكم ما لم تضمدوه بمحبتكم مشيتم في الأرض مقرّحين بقرحة خفيّة .

ما دمتم معرِضين عن الخيال ، ولا دليل لكم غير حواسكم الخارجيّة ، بقي العالَم الذي تحيون فيه عالماً تتعاقب فيه اللذّة والألم من غير أن يكون في تعاقبهما وتوزيعهما ما يشبه العدل أو المساواة . أمّا بالخيال فتدركون أنّ آلامكم إنّما هي كلّها آلام المخاض . هي آلام البذرة عندما تنفلق لتلد الشجرة . وآلام الشجرة عندما تلد البرعم . وآلام البرعم عندما تنشقّ أجفانه ليتقبّل نور النهار وندى الليل . وآلام الزهرة عندما تنتزع الريح وريقاتها الناعمة وتذرّيها في الفضاء . وأخيراً هي آلام الثمرة عندما تضمّها الأرض إليها لتقتبل البذرة من رحمها .

وبالخيال تدركون أن كلّ ما يتراءى لكم تفاوتاً بين حظوظ النّاس من حيث اللذّة والألم ، والجهل والمعرفة ، ليس أكثر من التفاوت بين البذرة والبرعم ، والزهرة والثمرة . فالبرعم ، في الظاهر ، يعرف من الوجود أكثر ممّا تعرفه البذرة . والزهرة أكثر من البرعم . والثمرة أكثر من الزهرة . لكنه تفاوت في الزمان والمكان لا غير .

والخيال الذي يطوي كلّ الزمان في « الآن » ويحشر كلّ المكان في « هنا » لا يبصر من هذا التفاوت شيئاً . لأنّه يرى الشجرة والبرعم والزهرة والثمرة في البذرة من قبل أن تدرج البذرة من أكفانها .

فاحذروا من أن تحنوا رؤوسكم أمام إنسان . إذ ليس في الناس من هو أعظم منكم . أو أن تكبروا على إنسان . إذ ليس في الناس من هو أقلّ عطايا منكم . أو أن تسألوا شيئاً من إنسان . إذ ليس في الناس من يستطيع أن يعطيكم ما ليس بعضاً من ميراثكم .

أمّا إذا لم يكن لكم بدّ من الانحناء ، فانحنوا أمام الخيال الأكبر الذي هو أمّ لخيالكم .

أو لم يكن لكم بدّ من الكبر ، فاكبروا على عناكب الحسّ التي لا تنفكُّ تنسج أغشية لخيالكم .

أو لم يكن لكم بدّ من السؤال فاسألوا ألاّ تفوتكم معرفة الرسل الذين يبعث بهم أبداً إليكم الخيال الأسمى لينهض بخيالكم من قيوده كيما يصبح شريكاً له في الخلق وفي تدبير الحياة التي لا تُحَدّ .

إنّ يداً نصف ذاوية تمتدّ إليكم في الشارع مستجدية حسنة قد تكون من رسل الخيال الأسمى إليكم . ومثلها كلمة طائشة تفلت من فم طفل ، أو نملة هاربة بحبّة من قمحكم ،

أو ملمّة تنزل بكم ، أو حلم يزوركم في المنام ، وكلّ ما ينتابكم من عوامل في خلال العمر – كلّ هذه قد تكون رسلاً إليكم .

لكنّ أعظم رسول بغير استثناء هو المحبّة . فاطلبوا كيما تتفتّح بصائركم لتعرفوا أولئك الرسل ، وتفهموا رسالتهم ، وتترجموها إلى حريّة لخيالكم .

فأنتم متى انفكّ خيالكم من أصفاده – لا قبل ذلك – تمكنتم من الوصول إلى قلب الجمال والحريّة – إلى قلب المحبّة والحقّ – إلى قلب الله .

الأبواق المحطّمة

ألقيت في حفلة جمعية « تهذيب الشبيبة »
في بيروت في ٢٩ نيسان سنة ١٩٣٣

قد يكون من الكياسة ، ونحن في حفلة جمعية تعنى بتهذيب الشبيبة ، أن أكيل الشيء الكثير من المديح للجمعيّة . أو أن أفيض في الحديث عن التهذيب ومنافعه . أو أن أتغنى بجمال الشبيبة ونشاطها والآمال التي تُعقد عليها .

غير أنّي لستُ أُحسن النفخ في مثل هذا البوق . فأنا من بعد أن قضيت نصف عمري حتى الآن أتعلّم النفخ في أبواق الناس قضيت نصفهُ الآخر في تحطيم ما جمعتهُ من الأبواق لأستعيض عنها ببوق واحد ، هو البوق الذي أمجّد به الحياة الكاملة .

كأني بكم تقولون : « وما هي أبواق الناس التي حطمها هذا الإنسان ؟ وما هي الحياة الكاملة التي يمجّدها ؟ إن الحياة التي نعرفها تبتدىء بعويل الولادة وتنتهي بحشرجة الموت . فهي قاسية . والحياة التي نعرفها تجرّعنا الحلاوة بيمينها والمرارة بيسارها . فهي شحيحة . والحياة التي نعرفها فيها الكسيح وفيها

المجنّح . ومجنّحها أبداً يسبق كسيحها . فهي عرجاء . وفيها القوي وفيها الضعيف . وقويّها أبداً يبطش بضعيفها . فهي ظالمة . وفيها الجمال والشناعة . والخير والشر . فهي ناقصة . »

لقد نفختُ مع الناس في البوق الذي يمجّدون به رباً يُميت ويحيي ، ويعاقب ويثيب . واليوم أنفخ في بوق ربٍّ فوق الحياة والموت ، وأرفع من العقاب والثواب . إذ قد وجدت أن القدرة التي ندعوها الله هي الكلُ في الكلّ . لا حالات فيها ، ولا صفات لها ، ولا حقيقة إلاّها ، ولا وجود لشيء إلاّ فيها . فإن هي أماتتني فكأنّها تميت ذاتها . لأنّني منها وفيها . وهل يمحو الله ذاته بذاته ؟ وإن هي عاقبتني فكأنّها تعاقب ذاتها وتقتصّ من ذاتها لذاتها . وهل يذنب الله إلى الله ؟

إن البحر لا يُميت قطرةً من الماء عندما يستردّها من جوف صهريج في الصحراء إلى جوفه . إنّما تميت قطرة الماء ذاتها إن هي توهّمت أن الحياة كلّ الحياة في جوف الصهريج ونسيت أنّها أبداً في حوزة البحر حيثما انطلقت وأنّى استقرّت.

والبحر لا يعاقب قطرة من الندى إن هو انتشلها من بين أجفان زهرة على رأس جبل وأنزلها على ذؤابة قطربة في قعر واد . إنّما تعاقب قطرة الندى نفسها إن هي توهّمت أجفان الزهرة خيراً من ذؤابة القطربة .

لذلك حطّمتُ بوق الإله المُميت والمحيي . والمعاقب والمثيب .

ولقد نفختُ مع الناس في بوق حبّ الحياة وكره الموت . إلى أن أولمتُ مرّة من نفسي وليمة للموت والحياة . فإذا بهما يأكلان بملعقة واحدة من قصعة واحدة ويشربان بكأس واحدة . وما برحت نفسي خواناً ممدوداً للحياة والموت حتى الساعة .

لذلك حطّمت بوق حبّ الحياة وكره الموت .

ولقد نفخت مع الناس في بوق التقدّم . وقلت مع الناس إن للحياة مقدمة ومؤخرة . وإن الذين في مقدّمتها خيرٌ من الذين في مؤخّرتها . وعندما جئت أبحث عن أوّل القافلة وجدته مقطوراً بآخرها ، ووجدت الحياة تدور على ذاتها . وعلمت أن موقف الناس منها كموقف المتفرّج على ينبوع متفجّر من صخر . فهو لا يبصرُ منه إلاّ على قدر ما تتناوله عيناهُ . ولو أنّه نظر إليه بعين خياله لأبصر أوّله في البحر وآخره في البحر . ولأني تعلّمت أن أنظر بعين خيالي أصبحت لا أبصر في الناس سابقاً ومسبوقاً ولا أفهم الناس عندما يتكلّمون عن الحياة كما لو كانت ميدان سباق . إن تكن الحياة سباقاً فكيف لي ولكم أن نحكم في السابق والمسبوق ونحن لا نعرف أين ابتدأ السباق وأين ينتهي ؟ إنّ من يمشي إلى الأمام كالذي يمشي إلى الوراء . فكلاهما ، ما زال ماشياً ، سيعود حتماً إلى

حيث كان .

لذلك حطّمت بوق التقدّم .

ولقد نفختُ مع الناس في بوق النموّ إذ نظرت بأعينهم إلى ما حواليّ فرأيتُ النبات ينمو ، والحيوان ينمو ، والإنسان ينمو . ورأيت أعمال الإنسان تنمو ومثلها جماعاته من العائلة ، إلى القبيلة ، إلى القرية ، إلى المدينة ، إلى الأمّة ، إلى المملكة .

غير أني عندما طلبت السرّ في هذا النموّ وجدتُه على عكس ما صوّره لي الناس . فسرّ النموّ عندهم هو في الازدياد والتضخّم والتمدّد . أمّا الحياة فقد علّمتني أنّه في التناقص والتقلّص والرجوع إلى الأصل . فنموّ الشجرة ليس في تضخّم ساقها وامتداد أغصانها ووفرة أزهارها وأثمارها . بل في الرجوع إلى البذرة . ونموّ الإنسان هو في التخلّص من كلّ الزوائد وتمزيق كلّ اللّفائف التي تستره عن نفسه . ولن يبصر الإنسانُ الإلهَ الكائنَ فيهِ إلاّ عندما يلتهمُ الإلهُ الإنسانَ مثلما تلتهم الحطبةَ النارُ الكامنة في جوفها .

لذلك حطّمتُ بوق النموّ .

ولقد نفخت مع الناس في بوق الحريّة . وعندما رحت أبحث عن رجل حُرّ وجدت ملاّكين كثيرين وسمعتهم يقولون : « انظر إلى أملاكنا ما أوسعها . ونحن أحرار هنا

نفعل ما نشاء . » غير أني رأيت حول أملاكهم سياجات من الأسلاك الشائكة ورأيت قلوبهم عالقة في أشواكها .

ووجدت متموّلين كثيرين وسمعتهم يقولون : « انظر إلى الأموال التي جمعناها ما أوفرها . ونحن أحرار ننفقها مثلما نشاء . » غير أني رأيتهم يخزنون أموالهم في صناديق من حديد ومعها يخزنون قلوبهم ، ثمّ يعلّقون الصناديق في رقابهم .

ووجدتُ ممالك كثيرة تعدُّ رعاياها بعشرات الملايين وسمعتها تقول : « انظر فنحن أقوياء . ونحن أحرار نحكم أنفسنا بأنفسنا . » غير أني رأيت في تلك الممالك جنوداً غفيرة وأساطيل ضخمة . فأيقنت أن الناس لا يعرفون من الحريّة حتى خيالها . لأنّهم قد جعلوا من حياتهم شبكة هائلة من السياجات — سواء أكانت تلك السياجات أسلاكاً شائكة ، أم صناديق من حديد ، أم جنوداً ، أم أساطيل ، أم قوانين ، أم تقاليد ، أم معاهدات سلميّة . وهم لا يفقهون أن ليس في استطاعتهم أن يسيّجوا على الحريّة أكثر ممّا في استطاعتهم أن يحصروا نور الشمس في زجاجة . وما سياجاتهم كلّها إلاّ رموز المخاوف الناشبة مخالبها في قلوبهم . وكيف يشعر بالحريّة من كان قلبه في مخالب الخوف ؟

رأيت الناس يسيّجون أملاكهم وبيوتهم وكلّ مقتنياتهم . أمّا نفوسهم فيتركونها مشاعاً لكلّ فكر خبيث ونيّة سيّئة

وشهوة دنيئة . ومَن لم يتحرّر من رجاسة نفسه أنّى له أن يتحرّر من رجاسة الغير ؟

إن سقراط في سجنه كان حُرّاً وهو يجرع السمّ حين أنّ أهل أثينا كانوا عبيداً وهم يجرعون الخمر خارج السجن .

وهكذا علّمتني الحريّة أن أطلبها في روحي لا ضمن سياجات الناس . وأفهمتني أنّ أفقر الناس أكثرهم سياجات . وأشدّهم عبوديّة مَن ظنّ أن في وسعِهِ أن يستعبد سِواهُ . وأضعفُ الممالك أوفرُها جنوداً وأضخمها أساطيل . وأذلّ الأمم أمّةٌ تتوهّم أن في طاقة أمّة أخرى أن تسلبها أو أن تهبها الحريّة .

لذلك حطّمت البوق الذي ينفخ فيه الناس باسم الحريّة .

ولقد نفخت مع الناس في بوق الشرف . وعندما وقفت على قارعة الطريق أستنطق الشرفاء من الناس وجدت بعضهم يرى شرفه في حسبه . وبعضهم في وسامٍ على صدره . وبعضهم في ورقة معلّقة على جدارِ بيتِه قد تكون شهادة من مدرسة أو رسالة من ملاكم شهير . وبعضهم يرى نفسه أشرف من الناس لأن الناس قلّدوه وظيفة . وبعضهم يرى شرفه في حسن سمعته بين الناس . وبعضهم في طربوشه أو حذائه .

غير أني لم ألقَ بعد شريفاً ليس في استطاعتي واستطاعة سواي نزع شرفه بكلمة واحدة — يا أحمق أو يا كذاب .

أو نحو ذلك من الكلمات الّتي يحسبها مهينة . فشرف يسيّجه إنسان بأعزّ ما لديه ثمّ تنزعه عنه كلمة واحدة من رَجل سواهُ لشرفٌ أقلّ ما يقال فيه إنّه تاج من دُخان .

أمّا الإنسان الذي يعقد الآزال بالآباد والذي تعانقُ جذورُهُ جذورَ كلّ الحياة فقلّما وجدت من يكتفي بوسامه وساماً أو بشرفه شرفاً .

لذلك حطّمتُ بوق الشرف .

ولقد نفختُ مع الناس في بوق المساواة . إلاّ أنّني عندما أخذت ذراعهم لأساوي نفسي بسائر الناس وجدتني أقصر من بعض وأطول من بعض ، ووجدت ذراعهم من مطّاط . فهي قصيرة إذا أرادوها قصيرة . وطويلة إذا أرادوها طويلة . وعندما أخذت ميزانهم لأزن نفسي معهم وجدت بعضهم أرجح مني ووجدتني أرجح من بعض . فكفتا ميزانهم لا تستويان على شيء . وهما أبداً في نِفَار . إذا صعدت الواحدة إلى فوق هبطت الأخرى إلى أسفل .

غير أنّ الحياة كانت أحنّ عليّ من الناس . فقد أعطتني ذراعاً واحدة لكلّ شيء . إذ علّمتني أن لا طول لها ولا عرض ولا عمق . وأنّها فوق كلّ قياس لأنّها أبعد من كلّ حدّ . مثلما أعطتني ميزاناً يستوي في كفتيه كلّ شيء . إذ علّمتني أنّ أصغر ما فيها يتمّم أكبر ما فيها . وأن أكبر ما فيها يخدم

أصغر ما فيها . وليس في قدرة بشر أو إله أن يزيد فيها أو أن ينقص منها قدر درهم . فلا الجبل أثقل من ذرة الرمل . ولا الثور أعظم من الضفدع . ولا الثمرة أثمن من الحطبة . ولا الزهرة أقدس أو أجمل من الشوكة .

ثمّ إنّ لكلّ ما في الحياة شركة في كلّ شيء آخر . فللدبور وللزلقطة شركة في عناقيد كرمتي مثلما لي شركة في عسل النحلة ولبن البقرة . وللحكيم قسط من جهلي كما أن لي قسطاً من حكمته . وللقوي حصته في ضعفي كما أنّ لي حصة في قوّته . فأنا ما أكلت من ثمار الحياة إلاّ لأكون ثمراً لغيري من أبناء الحياة . ولا استنرت بنورها إلاّ لأكون نوراً لسواي . فهي المطعمة وهي المنيرة في كلّ حال .

لذلك حطّمت البوق الذي ينفخ فيه النّاس باسم المساواة .

قبل أن حطّمت أبواق الناس كان الناس عندي ذوي أصوات عديدة ووجوه لا تحصى . وكانت أصواتهم جَلَبَةً في أذنيّ . ووجوههم أغشية على عينيّ . فكنت أُصغي إليهم ولا أسمعهم . وأنظر إليهم ولا أُبصرهم . أمّا اليوم فإذا ما أصغيت إلى الناس سمعت صوتاً واحداً ــ صوت الإنسان الحامل كلّ أصوات الحياة مثلما يحمل الفضاء كلّ أصوات الأرض والسماء . وهو صوت ليس أعذب منه في سمعي . وإذا ما نظرت إليهم أبصرتُ لهم وجهاً واحداً ــ وجه الإنسان

الذي تتجلّى فيه كلّ وجوه الحياة مثلما تتجلّى السماء في قطرة من الماء . وهو وجه ليس أجمل منه في نظري .

ألا مجّدوا معي الإنسان . مجّدوه فهو أعظم من كلّ أعماله . وهو كالبحر يقذف باللآلىء والأصداف غير أنّه أكبر من كلّ ما فيه من لآلىء وأصداف . مجّدوه فمهده في الأزل ولحده في الأبد .

مجّدوه لأنّهُ وإن دبّ على الأرض برجلين من رصاص ويدين من حديد فهو يمنطق الأكوان بخيال من نور .

مجّدوهُ لأنّهُ في كلّ يوم يَصلب نفسه ويدفنها . وفي كلّ يوم يتغلّب على الصليب والقبر .

مجّدوه لأنّه كاملٌ وعنوان الحياة الكاملة . وعندما تلركون كماله حطّموا البوق الذي تمجدونهُ به . فالكمال أرفع من أن يُرفع وأمجد من أن يُمجَّد .

صنّين والدولار

ألقيت في حفلة أقامتها بسكنتا – مسقط رأس الخطيب – على أثر عودته إليها في أيار سنة ١٩٣٢ من بعد غربة عشرين سنة في الولايات المتحدة . وبسكنتا واقعة على سفح صنين الغربي ، ١٣٠٠ متر فوق سطح البحر . والمدرسة التي أقيمت فيها الحفلة هي التي تلقن فيها الخطيب دروسه الابتدائية . أما صنين فهو القمة الشهيرة التي تتوسط سلسلة جبال لبنان .

يا أبناء بَسْكِنْتَا ، يا لحمي ويا دمي !

منذ عشرين سنة أدرت وجهي إلى البحر وظهري إلى صنّين . واليوم صنّين أمامي والبحر ورائي . وأنا بين الاثنين كأنّي في عالَم جديد ، وكأنّي وُلدتُ ولادة ثانية .

ما أنا بالنبيّ يصنع العجائب . غير أني منذ عدتُ إليكم والعجائب تكتنفني . فكأنّني في عالَم مسحور . أنظر إلى الجبال التي كنت أتسلّقها فإذا بها تتسلّقني . وإلى الأودية التي كنت أهبط إليها وإذا بها تهبط إلى أعماقي . وإلى البساتين والكروم والحقول التي كنت أتمشى فيها وإذا بها تتمشّى بين جنبات ضلوعي ، وكأنّ كلّ غرسة فيها غُرست في داخلي .

وكأنّ كلّ يد تعمل في تربتها تعمل في تربة نفسي .

أكاد لا ألمس حجراً إلاّ تفجّرت منهُ سيول من الطهر والجمال .

أكاد لا أسمع زقزقة عصفور إلاّ سمعت فيها أجواقاً من الملائكة ترنّم بصوت واحد : « قدوس . قدوس . قدوس . »

أكاد لا أرفع بصري إلى نجم إلاّ تدلّت منهُ سلالم سحريّة. هي سلالم المحبّة التي تربط كلّ ما في السماء بكلّ ما على الأرض .

ومن ثَمّ فكيفما انقلبتُ تجمهرت عليّ ذكريات ما كان من حياتي قبل هجرتي . فهي تثب عليّ من جوانب الطرق ، وشقوق الصخور ، وخطرات النسيم ، وقطرات عيون بسكنتا الكثيرة .

هي ذي وجوهُ أتراب صباي تُطلّ عليّ من جدران هذه المدرسة . وأصواتهم تتعالى في أذني . وأشواقهم وأوجاعهم تزدحم في قلبي . وبينهم مَن هم اليوم خلف ستار المحسوسات ، فألف رحمة عليهم . وألف سلام على الذين ما برحوا يتنفسون بأنفاس هذه الأرض أينما كانوا .

نعم ، لقد بعثرتُ في هذه الأرجاء كلّ أيّام طفولتي وصباي ، وقسماً كبيراً من شبابي . بعثرتها بدون حساب وبدون

أمل بأيما ثواب . فكنت كالزارع يزرع ولا يدري ماذا وأين يزرع . وها أنا اليوم أحصد ما زرعت .

زرعت أحلاماً أحصدها اليوم محبّة في قلوبكم . وبعثرت أشواقاً أجمعها اليوم أشعة من أنوار عطفكم . تلك هي غلّتي من قلوبكم وهي في نظري أوفر من أن تُثمّن ، وأقدس من أن توصف ، وأبقى من أن أطلب بعدها زيادة .

لقد كان لي عندما غادرت هذه الربوع أب واحد وأمّ واحدة . واليوم أينما وقعتْ عيني على أبٍ أبصرت فيه أباً لي . وحيثما التقيت أمّاً على صدرها طفل رأيتني ذلك الطفل ورأيت في أمّه أمّي . لقد كان لي مسكن واحد واليوم لي في كلّ بيت من بيوتكم مسكن . فما أكرم ربّي الذي يسّر لي التمتّع بهذه النعمة . وما أطيبكم تحسبونني أهلاً لها !

* * *

يقولون إن الغربة مدرسة . أجل ، إنّها لمدرسة . غير أنّها كسواها من المدارس لا تعطي الطالب أكثر ممّا يعطيها . فهي تنمي ما غرستَه فيه يدِ الحياة ولا تلقّنه دروساً ، بل تساعدهُ على درس ما فيه . والدرس الذي علّمتنيه الغربة هو أن لا غربة في هذا الكون على الإطلاق إلاّ غربة الإنسان عن ربّه ، غربة الإنسان عن نفسه . فالنّاس مهما تعدّدت الألسنة واختلفت الأقاليم والألوان والأذواق والأديان هم

هم في كلّ مكان . والذي يغترب عن دياره ليفتش عن غير نفسه لا يلاقي إلاّ المرارة وإنْ جمع جبالاً من المال .

كلّ ما تسمعونه عن التغرّب لكسب المعالي والثروة والفخار ليس إلاّ قبض الريح . تلك كلمات معسّلة في قلبها علقم .

فما هي المعالي التي يستطاب من أجلها ركب البحار واقتحام الأخطار ؟ أهي أن تصبح على رأس جبل وجارك في وادٍ لا سلّم يرقى بهِ إليك وتنزل بهِ إليهِ ؟

وما هو الفخار ؟ أهو أن يشقى جارك ليبتاع بخوراً يحرقه أمامك وأن تنعم أنت ببخوره وشقائه ؟

وما هي الثروة ؟ أهي أن تشبع وجارك جائع ، أو أن تلبس الحرير وهو عريان ؟ صدّقوني أن لا راحة في ذلك ولا سعادة .

ها أنتم أمامي . ولا أظنّ أن في صدر واحد منكم قلباً ليس مشدوداً بحبل من الشوق والقلق والألم — حبل طرفه الواحد ههنا والآخر في مكان قصيّ وراء البحار قد لا تعرفون منهُ حتّى اسمه ؛ هو المكان الذي أمّه حبيب من أحبّائكم لكسب المال . فلا أنتم سعداء ، ولا أحبّاؤكم المغتربون عنكم سعداء .

لو جمعتم كلّ ما ذرفتهُ عيون بسكنتا من دموع منذ ابتداء المهاجرة حتّى اليوم لطافَ بهِ وادي الجماجم[1] . ولو

---

[1] هو واد بالقرب من بسكنتا ، شهير بعمقه ووعورته ورهبته .

كان لكم أن تستخرجوا من الأثير كلّ ما أودعتْهُ قلوبكم وقلوب آبائكم وأجدادكم من تنهدات وتحرّقات وأن تدفنوه في قلب صنّين لتحوّل صنّينكم الساكن إلى بركان .

فماذا استقطرتم من دموعكم وماذا قطفتم من لوعاتكم ؟

لعمري ، لو كان ما سكبتموهُ من الدموع صلوات لربّكم ليجعلكم طاهرين آمنين كالجبال التي تحرسكم لرفعكم ربّكم إليه على بساط من النور والرحمة . ولو أنّكم حرقتم ما حرقتموهُ وتحرقونهُ من قلوبكم ذبيحةً للأرض التي قُدّت أجسامكم منها لتحوّلت حتّى صخورها إلى أثمار ، وأشواكها إلى أزهار . ولفاضت عليكم من أخاديدها ينابيع من الوفرة والعافية .

كان أكثر الذين تلطّفوا بالسلام عليّ يسألني عن الأزمة في أميركا . فكنت أحدّثهُ عن اختلال التوازن الاقتصادي في العالم . وعن هبوط أسعار القطن والحنطة والبن والحديد والنحاس . وعن الماكنات التي اخترعها الإنسان ليفكّ بها قبضة الحاجة عن خناقه فخنقتهُ . كنتُ أحدّثهُ عن ذلك ، ثمّ أنظر إلى صنّين فأستهجن صوتي ، وأخجل من نفسي ، وأشعر بألف وخزة في داخلي ، وألف حرقة في قلبي . ويهتف هاتف من أعماق كياني : « يا للرزيّة ! أتهبط عزيمة القاطن في سفح صنّين بهبوط أسعار البن في سان باولو ، وتنهار آماله

بانهيار البورصة في نيويورك ؟ ما لصنّين وللديون الدوليّة ، وما للآكام المتكئة في أحضانه وللموازنة في واشنطن ؟ »

ما أبعد السلام المخيّم في جبالكم عن الجلَبة المعسكرة في مدينة كمدينة نيويورك ! فعلامَ تُصِرّون على تزويج سلامكم من تلك الجلَبة ؟

سلامكم هو أنفاس العزّة القدسيّة المنبعثة من صخوركم وترابكم وأعشابكم . وتلك الجلَبة هي تطاحن المطامع والأهواء البشريّة في سبيل الريال . والاثنان لا يتزاوجان ولن يتزاوجا . وليس أضلّ ممّن يعتقد أن بإمكانه التوفيق بين ريال نيويورك وسلام صنّين . فريال نيويورك نقاب كثيف يحجب وجه الله . وصنّين عرش من طهارة يبدو عليه وجه الله سافراً . مَن اختار منكم ريال المهجر وكلّ ما في قلبه من جلَبة لا تستكنّ فليطلّق سلام صنّين .

تقولون لي : وهل نأكل سلام صنّين إذا عضّنا الجوع ، أو نلتحف به إذا قرصنا البرد ؟

وأنا أقول لكم : بلى وألف بلى . فالجمال الذي تنثره يد الله حواليكم بسخاء هو الطعام والكساء والمأوى لكلّ ما هو أزلي وأبدي فيكم . أمّا الذي سيفنى منكم فلهُ من التربة التي حوّلتها عضلاتكم إلى جنائن وكروم وحقول ما يكفيه لقطع مرحلة العمر . وليس آمن مِنْ تربتكم مستودعاً لعرق جبينكم ،

ولا أحنّ منها عليكم ، ولا أطهر من الخيرات التي تكافئكم بها لقاء أتعابكم .

قالت لي إحدى النسوة اللواتي جئنني مسلّمات عندما وضعت يدها في يدي : « يا عيب الشوم منّك ، ديّاتي مْخَشْبَرين . » فأجبتها : « بل يا عيب الشوم منّك ، ديّاتي ناعمين . » وعجبتُ لزمان تعتذر فيه اليد التي تعطي لليد التي تأخذ .

أقول لكم إنّ كلّ يد خشّنها العمل تصافح يد الله وتشاركها في توليد خيرات الأرض ؛ والذي يخجل منها إنّما يخجل من ربّه . حين أن الكثير من الأيدي الناعمة قد لا يصافح إلاّ يد إبليس .

لا تخجلوا من العمل الذي هو بحقّ عمل . واخجلوا من البطالة التي تتزيّا بزيّ العمل وهي بطالة . ولا تتوقعوا أن تأتيكم السعادة في مركب من وراء البحار . فأنتم لو لاصقت أرواحكم أرواح جبالكم كما تلاصق أجسادُكم أجسادَها لوجدتم المسكونة بأسرها في أحضانكم .

وربّ المسكونة في قلوبكم .

مدنيّة الآلات والأزمات

ألقيت في ١٩ حزيران سنة ١٩٣٢ في حفلة أقيمت تحت رعاية جمعية « التضامن الأدبي » في مسرح « الأمير » ببيروت .

يا أبناء بلادي !

شاءت جمعية « التضامن الأدبي » أن تجعلني موضوع هذه الحفلة . وبودّي أن أجعلكم موضوعها . ولقد ألبسني شعراؤها وخطباؤها الكثير من نسيج لطفهم وعطفهم وبيانهم . وها أنا أستميحهم وأستميحكم عذراً لأخلع عني ما خلعوه عليّ ، وأقف أمامكم لا شاعراً ولا ناقداً ، لا هدّام قديم ولا بنّاء جديد — بل إنساناً تجمعه بكم قبل كلّ شيء شركة الإنسانيّة في السماء والأرض والحياة والموت . ومن ثمّ تربطهُ بكم روابط اللحم والدم واللغة . فأنتم مني وأنا منكم . وصبغتكم صبغتي وإن اصطبغتْ علاوة عليها بألوان كلّ الأمم وحضاراتها ومدنيّاتها .

تركت نيويورك وفي أذنيّ ولولة الإنسانيّة بأسرها . ولولة تكاد تحسبها حشرجة الموت . وولولة لا تسمع منها إلاّ كلمة

واحدة : الأزمة . الأزمة . الأزمة .

لو أنّ زلزالاً حلّ بالأرض فقطّع أحشاءها وجفّف ضرعها ؛ أو لو أن قدرة فكّكت ما بين النجوم من أواصر ، وبعثرت الشموس والأقمار هباء في الفضاء ، لقلنا : هي ضربة من عالم خفيّ .

غير أن الأرض ما برحت تغمر الناس بخيراتها ، والسماء ما فتئت تمطرهم بركاتها . فمن أين هذا الكابوس الذي ضيّق أنفاسهم — من أين هذه الأزمة ؟

في الولايات المتحدة التي هي اليوم حادية القافلة البشرية ، جبال من الحنطة — وجموع غفيرة من الجياع . وفيها ألوف من المساكن الفارغة — وألوف من الذين لا مأوى لهم . وفيها أكداس من الأقمشة — وجماهير من الناس تكاد أثوابهم البالية تلتصق بجلودهم . وفيها من الاختراعات ما لا يحصيه ذكر — وملايين يطلبون عملاً فلا يجدونه .

ما تلك نكبة الولايات المتحدة وحدها . إن هي إلاّ نكبة العالم أجمع . هي نكبة مدنيّة رأسها في جيبها وقلبها في معملها . فإن أنت شددت على جيبها شددت على خناقها . وإن أنت أقفلت أبواب معملها أقفلت أبواب قلبها .

والذي شدّ على خناقها وأقفل أبواب قلبها لم يكُ إلاّ كفّها . فهي كالصائد وقع في شباكه ، وكدودة القز حاكت

من قلبها كفناً لقلبها . غير أن دودة القز تخرج بعد حين من كفنها لتحيا حياة جديدة مجنّحة . أمّا هذه المدنيّة فلست أدري متى وكيف تمزّق ما حاكته لنفسها من الأكفان .

ليس يحزنني أكثر من الذين يفتشون عن داء المدنيّة في مفاصلها ، ويبتدعون لها من العقاقير الاقتصاديّة والماليّة والاجتماعيّة والسياسيّة ما يُضحك ويُبكي . وداؤها في رأسها وفي قلبها . وما طبّ الاقتصاديين في أزمتهم بأنجع من طبّ زملائهم السياسيّين في استئصال داء الحرب . فهؤلاء يصرفون السنين في عقد المؤتمرات لتخفيض السلاح ، والتطبيل والتزمير للسلم . والحرب ، لو يعلمون ، لا تستعر نيرانها في أجواف المدافع ، بل في قلوب الناس وأفكارهم . والسلم لا يولد في المؤتمرات الدوليّة ، بل في قلوب الناس وأفكارهم أيضاً . فهم لو دمّروا كلّ أساطيلهم ، وسكّوا سيوفهم محاريث ، وسبكوا مدافعهم أجراساً ، وحوّلوا ثكناتهم العسكريّة إلى معابد ومدارس ، لما تخلّصوا ، مع ذلك ، من الحرب .

ألا فليجردوا أولاً قلوبهم من مدافع الطمع ، وحراب البغض ، وقنابل الحسد .

ألا فلينقّوا أفكارهم من الوهم بأن لإنسان الحقّ أن يستعبد إنساناً ، أو أن يأخذ منه أكثر ممّا يعطيه .

ألا فليتعرّوا من أثواب مدنيّتهم التي تخوّلهم ذلك

وحينئذٍ يتنفّسون الصعداء ويتخلّصون من كابوس الأزمات والحروب .

ويلٌ للإنسان يخترع الآلات لتكثير خيرات الأرض . وإذ تكثر خيراته تكثر غصّاته .

ويلٌ له يجدّ وراء الراحة . وإذ يجدُها لا يعرف كيف يستغلّها . فيقدّمها ذبيحة لإبليس .

ويلٌ له يستنبط الحيل لتقصير المسافات فيبقى حيث هو . فلو أنّه اتخذ جناحين ليطير بهما من البغض إلى المحبّة ، ومن الشقاء إلى السعادة ، لقلنا : بارك الله في جناحيه . لكنّهُ يحمل في الهواء كلّ ما يحمله على الأرض من بغض وحسد ومطامع وهموم وأوهام . فلا فرق إذ ذاك أقَطَعَ ألف ميل في الساعة أم ميلاً واحداً . فالمسافة بين ما يعرفهُ من نفسه وبين ما يجهله منها هي هي .

وأنتم يا أبناء بلادي ليس يؤلمني من أمركم شيء على قدر ما يؤلمني تطلّعكم إلى الغرب ، وجهدكم في تقليد مدنيّته المحتضرة ، واحتقاركم لأنفسكم ولكلّ ما فيكم من غنًى فطري وعُري روحي .

ولكم سمعتكم تقولون : لنقتبس من الغرب حسناته ، ولنضمّها إلى حسناتنا . وعندئذٍ تكتمل لنا السعادة . أوَلا تعلمون أن لكلّ ما تقتبسونه وجهين — وجهاً صالحاً ووجهاً

طالحاً ؟ فأنتم إن اقتبستم — مثلاً — حكومة البرلمانات اقتبستم مع محامدها كلّ مفاسدها . ومفاسدها لا تُعَدّ . وإن أخذتم السيارة أخذتم مع بركاتها كلّ لعناتها . مثلما أنكم عندما تقبلون قطعة من النقد لا تقبلون « طرّتها » دون « نقشتها » إذ لا سبيل إلى الفصل بين الاثنتين .

ثمّ إنكم تفاخرون كلّ المفاخرة بتاريخ بلادكم . فتدْعونها « مهد الأنبياء » . فما نفعكم من هذا المهد وقد أصبح اليوم عشّاً طار منهُ فراخه ؟

ما نفعكم من أنبيائكم ما لم يشعّ نورهم في قلوبكم ؟ أراكم قد دفنتموهم في بطون الكتب وفي ظلمات المعابد ويا ليتكم تدفنونهم في أرواحكم !

لقد علّمكم أنبياؤكم أن تتعرّوا أمام الحقّ فتمثلوا لديه لا رفعاء ولا وضعاء . بل أبناء تساووا بما لهم وما عليهم . وها أنتم تنتقون من بينكم أفراداً فتخلعون على البعض جبّة « الفخامة » وعلى الآخر « العطوفة » وعلى الثالث « السعادة » فكأنّ من بقي منكم ليسوا إلاّ خشارة الحياة .

وهكذا تُسكنون الذلّ في قلوبكم وشفاهكم تطلب الرفعة . وتبنون أعشاشاً للعبوديّة في أرواحكم وألسنتكم تنادي باسم الحريّة . ألا كفى الإنسان مجداً أنّهُ إنسان !

كذلك أسمعكم تقولون : بلدنا بلد طيب المناخ ، جميل

الوجه ، لكنّه فقير .

ألا خبّروني ما هو الفقر ؟ أهو الفقر أن تكون لك عزيمة تفتّق من الصخور عنباً وزيتوناً وقمحاً كما تشهد جبالكم ؟

أهو الفقر أن تشرب ماءً قراحاً وتنشق هواءً معطراً ؟

أهو الفقر أن تفترش الأرض وتلتحف السماء وأن تقاسمك العافيةُ فراشك ولحافك ؟

أم هو الفقر أن تأكل رغيفاً معجوناً بعرق جبينك ومخبوزاً بنار إيمانك بدلاً من أن تأكل رغيفين معجونين بدم قريبك ومخبوزين بنار بغضائه وألمه ؟

وما عساني أقول في جمال هذا البلد الذي ترونه فقيراً ؟ إن لم يكن له من بحره وجباله إلاّ جمالها لكفاه ذلك ثروة .

إنّه لمن السهل أن تُحدّد ثمن ذراع من الحرير أو رطل من البصل . أما هياكل الصخور التي تحجّ إليها الرياح والنسور ؛ والتلال الحاملة على ظهرها الصنوبر والسنديان والريحان ؛ والأودية العابقة بأنفاس السلام ؛ وملاءة النسيم السحريّة التي تنخل لك من نار الشمس نوراً وبلسماً — كلّ هذه وسواها من نوعها كيف تثمّنها ؟

لقد مضى على مغادرتي نيويورك شهران بالتمام أمضيت عشرين يوماً منهما في مدرسة البحر ، وأربعين في مدرسة شنّين . إنّها لفسحة قصيرة من العمر إن هي قيست بعدد

ساعاتها . بل هي لمحة من طرف الزمان . غير أنّها لمحة تعانقت فيها الآزال والآباد ، وتصرّمت المسافات ، والتصقت البدايات بالنهايات . إذ أبصرت فيها الحياة عريانة من كلّ زخرفة وبهرجة ؛ وأدركت أنّها لا تفتح ذراعيها إلاّ للذين يدنون منها بأرواح عارية من كلّ شيء سوى المحبّة . وقلوب خالية من كلّ شوق سوى الشوق إلى الحقّ . أمّا الذين يطلبونها بأردية كثيرة من المعرفة الموهومة فيبتعدون عنها كما ابتعد آدم عن ربّه يوم ارتدى ثوباً من ورق التين مدّعياً ستر عورته ، حين لم يكن فيه من عورة غير ثوبه الذي جعل منه ستاراً بين نفسه وربّه .

أمّا البحر فعلّمني أن الحياة متلاصقة بعضها ببعض تلاصق القطرة بالقطرة والموجة بالموجة . فموجة تتفقّأ الآن على مرفإ بيروت لموجة يربطها كلّ ما في البحار من مياه بشقيقة لها تتململ في هذه الدقيقة على رمال هونولولو .

وعلّمني البحر أنّه لا يزيد ولا ينقص لأنّه يعطي من نفسه بدون حساب ، لذلك لا أزمة فيه على الإطلاق . وأن ما يتصارع على وجهه من الأمواج يصرع أبداً ذاته ولا يترك سوى زبد وعجيج . أمّا في الأعماق فلا صراع ولا زبد ولا عجيج بل سكينة أبديّة .

أمّا صنّين فعلّمني كيف أزجّ بمدنيّة الآلات والأزمات

في شقّ صخر من صخوره . وكيف أخنق زفراتها بزقزقة عصفور . وأطهّر أنفاسها بعبير زهرة . وأقف عرياناً في حضرة الفنّان الأكبر فأرقب يده تنحت من الصخور تماثيل يترنّح بمنظرها قلبي ، وتنقش في الحقول رسوماً تتجنّح بجمالها نفسي . فأصبح وكأنّني الفنّان وكلّ ما أبدعته يداه .

يا أبناء بلادي ! لا يبهرنّكم برق يلعلع في عيون المدنيّة الغربيّة — إنّه لبرق خُلّب .

ولا يهولنّكم رعد يزمجر في صدرها — إنّه لحشرجة الموت .

ولا يحزننّكم أن لا عَلَمَ لكم يخفق في مقدّمة أعلام الأمم — فإنّني لست أرى بين تلك الأعلام ولا علَماً لا أثر فيه للدم والاغتصاب والتهويل والإرهاب .

أحبّوا بلادكم لا بشفاهكم بل بقلوبكم . أحبّوا بحرها . أحبّوا جبالها . أحبّوا تربتها بمعاولكم تحبّكم ببقولها وأثمارها . لقّحوها بعصير أجسادكم تلقّح أجسادكم بعصير العافية . باركوها بإيمانكم تبارككم بالمعرفة . قدّسوها بالامتثال للمشيئة التي تعمل فيها تقدّسكم بالحريّة .

بلادكم بلاد عمل وسلام . فليكن ما تضيفونه إلى خزينة السعادة البشريّة لا آلات ولا مدرّعات بل عملاً مثمراً سلاماً منعشاً .

بلادكم بلاد وحي وجمال . فليكن ما تقدمونهُ لإخوانكم الناس وحياً وجمالاً . وليكن علّمكم علّم نور — علّم هداية — علّم محبّة .

المعرفة والمدرسة

ألقيت في الحفلة السنوية لمدرسة « الجامعة الوطنية » في عاليه — لبنان — أواخر حزيران سنة ١٩٣٢ .

لو سألتموني أن أحدّد لكم بكلمة واحدة غاية الإنسان من حياته لقلت — المعرفة . ولو سألتموني ما الذي أعنيه بالمعرفة لأجبتكم — معرفة الإنسان لنفسه . فالإنسان بروحه عالَم تجمّعت فيه كلّ العوالم من منظورة وغير منظورة . فهي لا وجودَ لها إلاّ فيه . وهو إن عرف ما فيه عرف كلّ شيء . لذلك لا قيمة عندي لكلّ جهوده إلاّ على قدر ما تدنيه من معرفة نفسه . ولا ثمن لما يلتقطهُ هنا وهناك من المعلومات الحسّيّة إلاّ إذا ترجمها إلى معانٍ روحيّة .

لقد يستوعب الواحد منّا كلّ ما توصّل إليه الناس من معلومات طبيعيّة أو فنيّة أو تاريخيّة أو سواها . لكنّه ما لم يجد فيها فوانيس تنير لهُ زوايا نفسه المظلمة بقي بعيداً عن المعرفة وكان مثَله مثَل رجل أضاع مفتاح بيته فراح يجمع

مفاتيح . وإذ عاد بعد غربة طويلة لم يجد بين كلّ ما جمعه ولا مفتاحاً يفتح به باب داره . فظلّ خارجاً وظلّ غريباً . ولم يكن نصيبه من المفاتيح التي جمعها سوى التعب والشقاء والحسرة .

إن المعرفة التي أكلّمكم عنها لا تُنال في مدرسة أو مدارس . ولا في فسحة معلومة من العمر — لا ولا في عمر واحد . بل نحن نلتقطها — إذا عرفنا كيف نلتقطها — في كلّ لحظة من وجودنا — في اليقظة والمنام ، في الموطن والغربة ، في الحياة والموت . فهي منبثة في الكون انبثاث نور الشمس في كلّ شيء . ونحن لو كانت لنا عيون تبصر لأبصرنا النور حتّى في الظلام الدامس . وفي أفئدة الصخور . وفي أعماق البحار .

المعرفة كالله — في كلّ مكان . والذين يطلبونها في مكان دون كلّ الأمكنة كالذين يطلبون الله في المعابد لا غير . فلا الله في المعابد وحدها ، ولا المعرفة في المعاهد العلميّة فقط .

إنّهُ لمن الحَيف أن نتطلّب المعرفة من المدرسة وحدها . لو كان ذلك في وسعها لأصبح الناس آلهةً في وقت قصير .

كما أنّه من الجهل أن ندّعي للمدرسة ما هو أوسع من نطاقها . فنراها بحراً يغرفُ منه الطلاب المعرفة . ونراها أمّاً لا ترضعهم من اللّبان إلاّ أصلحها لنموّهم ولسعادتهم .

ونراها ساحرة تقوّم كلّ ما فيهم من اعوجاج ، وتصلح كل ما فيهم من فساد ، وتبدل كلّ ظلماتهم أنواراً .

المدرسة كالقابلة — تستقبل المواليد من أرحام أمهاتهم ولا تلدهم . وإذا شئتم فهي كالدجاجة تحضن البيض لأيام معدودة ولا رأي لها على الإطلاق في ألوان وأجناس الفراخ التي تنقف من البيض . بل كلّ ما عليها أن تهديها إلى ما اهتدت إليه بالاختبار من موارد الرزق .

وهكذا المعلّم يأتيه الطالب ولا رأي له في ما أودعته يد الحياة من أسرار ، ولا سلطة له لتغيير مجاري حياته المربوطة بمجارٍ لا تحصى . وكلّ ما عليه هو أن يهديه إلى ما اهتدى إليه من الغذاء العقلي والروحي الذي قد يكون نزراً وقد يكون وافراً مثلما يكون صالحاً أو طالحاً . بل يكون عسلاً لطالب ، وسمّاً لآخر . وذلك لأن المعلّم نفسه لم يهتدِ بعد إلى المعرفة . فبينما هو يعلّم في مدرسته المحصورة إذا به يتعلّم في مدرسة الحياة الكبرى . والمعلّم الذي لا يتعلّم من تلميذه لا يعلّمهُ . والمعلّم الذي فات دور تتلمذه للحياة فات دور نفعه كمعلّم . والمعلّم الذي لا يعرف نفسه أنّى له أن يهدي سواه إلى نفسه ؟

لا تتطلبوا من المدرسة أكثر ممّا في وسعها أن تعطيكم . فالمدرسة المثلى هي كالتربة الصالحة ، والطالبون فيها كالبذور . لكلّ بذرة طبيعتها ومشيئتها وهويتها . تلك بنفسجة ، وتلك

أقحوانة ، وتلك شوكة . وليس على الأرض إلاّ أن تقدّم لها غذاءً طيّباً لتنبت البنفسجة بنفسجة خجولة فوّاحة ، والأقحوانة أقحوانة جميلة ، والشوكة شوكة قويّة . أما أن تجعلوا الأقحوانة بنفسجة ، والشوكة أقحوانة ، فذلك من كرم الله وعدله مستحيل .

أيّها التلاميذ ، ها أنا أتنبّأ لكم أن بعض ما درستموه وستدرسونهُ هنا سيصبح يوماً ما عثرة لأرواحكم . فلا تستقيم لكم طريق إلاّ بنبذه ؛ وأن بعض ما تحسبونه اليوم عبئاً ثقيلاً ستجدون فيه أجنحة لأفكاركم ومفاتيح لمكنونات نفوسكم ؛ وأنّكم كيفما صفّقتكم رياح المعيشة لن يقرّ لكم قرار حتى تدركوا أن في الحياة مدرسة واحدة ومثالة واحدة ومعلّماً واحداً . أمّا المدرسة فالإنسان ، وأمّا المثالة فالإنسان ، وأمّا المعلّم فالإنسان . لأنّه من الحياة قطباها ومحورها .

إنّكم إن خبرتم من الكواكب سرّ تجاذبها وتدافعها لا تخبرون شيئاً ما لم تخبروا سرّ تجاذب الناس وتدافعهم .

وأنتم إذا ذللتم العناصر كلّها لا تذللون شيئاً ما لم تذللوا عتوّكم وكبرياءكم .

وأنتم لو سُدتم العالم بأسره لا تسودون شيئاً ما لم تسودوا شهواتكم وأهواءكم .

وأنتم لو ساكنتم الأفاعي ، وجاورتم السباع ، وآكلتم

وشاربتم مجنّحات الجوّ لا تأتون أمراً عجيباً . لكنّكم متى تعلّمتم كيف تساكنون الناس وتجاورونهم ، وتؤاكلونهم وتشاربونهم ، دون أن تُلحقوا بهم أذيّة ودون أن ينالكم منهم أذيّة ، حينئذ تكتشفون أوّل الطريق إلى المعرفة .

ولن تكتشفوا أوّل الطريق إلى المعرفة ما لم تدركوا أمرين : أوّلهما أن الحياة شركة شاملة . وثانيهما أن الحياة دوائر محكمة فلا بدّ لكلّ ما يخرج من مصدر أن يعود إليه .

أمّا شركة الحياة فأعني بها أن كلّ ما في الحياة يخضع لناموس واحد ، ويتمّم مشيئة واحدة ، ويعمل لغاية واحدة وإن تنوّعت الأشكال والوظائف . فليس لشيء أو لأحد أن يدّعي لنفسه أكثر من سواه .

إذا كان في بيت أحدكم جرّةٌ من الخمر تنافس جرّة الخل وتكبر عليها فليقل لها : خسئت . فلي قصد من جرّة الخل لا تعرفينه ولولاها لكان بيتي ناقصاً .

وإذا رأيتم عرشاً مذهّباً يلتفت بازدراء إلى ما حواليه من الرياش ، ذكّروه بالمكنسة وبالخرقة والصابونة . فلولاها لما كان ما هو .

وإذا رأيتم شجرة من التفاح تفاخر بأثمارها ، ذكّروها بعصير المزابل ، ونور الشمس ، ودموع السحاب ، وأنفاس التراب .

كذلك إن سمعتم ذا عِلْمٍ يتبهرج بعلمه ، أو صاحب عضلات قويّة يباهي بقوّة عضلاته ، فقولوا للأوّل إنّ لأجْهَلِ جاهلٍ بينكم حصّةً في علمهِ . وللثاني إن لأضعفِ ضعفائكم قسطاً في قوّته .

أجل ، إنّ لكلّ إنسان شركة في كلّ النّاس . ولكلّ الناس شركة في أيّ إنسان . كلّنا شريك للمريض في مرضه . وللصحيح في صحته . وللعاقل في عقله . وللجاهل في جهله . وليس أضلّ ممّن يكرّم نفسه بتحقير سواه . أو ممّن يبحث عن سعادة نفسه دون سعادة الغير .

مَن احتقر إنساناً احتقر نفسه . ومَن أبغض إنساناً أبغض نفسه . ومَن حاول أن يهضم حقّ إنسان لا يهضم إلاّ حقّ نفسه . ما دام في الناس جاهل فالإنسانيّة بأسرها جاهلة . وما دام على الأرض شقيّ فالناس كلّهم أشقياء . إن من أدرك ذلك أمِنَ شرّ الناس واهتدى إلى الخير في قلوبهم .

أمّا دوائر الحياة فكثيرة ، وهي دائرة ضمن دائرة ضمن دائرة ، تضمّها دائرة المصدر الأعلى الذي منه ينبثق كلّ شيء وإليه يعود كلّ شيء . ولو عرف الإنسان أنّه مصدر ومرجع لصرف كلّ همّه في حياته لتنقية ما يصدر عنه كيما يكون ما يرجع إليه نقيّاً . فكلّ شهوة تصدر عن القلب ترجع إليه لا محالة — إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً . وكلّ كلمة

يلذع بها الإنسان أخاه تعود لتلذعه .

ومن هذا القبيل ليس أصدق من قولهم : « من حفر حفرة لأخيه وقع فيها . »

أقول لكم أيّها التلاميذ إن من شارك الناس في نفسه أمِنَ مساوىء نفسه ومساوىء الناس . واقترب من ربّه وربّهم . وإن من نقّى فكره وقلبه أصبح كالمنارة تذيع نوراً وسلاماً وطمأنينة . وأنتم إن أدركتم ذلك وعملتم به لا خوف عليكم من الغرق في بحور الأيّام واللّيالي مهما طغت وأرغت وأزبدت .

إنّني أؤمن بالشباب . أؤمن باندفاعه الجارف إلى الحقّ والعدل . أؤمن بشوقه المحرق إلى الجمال . أؤمن بعزيمته وحماسته في الوصول إلى غايته . فاجعلوا المعرفة غايتكم القصوى . ومتى بلغتم آخر عقبة العمر وسألكم الوطن ماذا فعلتم من أجله ، قولوا : لقد طلبنا المعرفة كيما نتحرّر من أنفسنا فنراك حُرّاً ونخدمك أحراراً .

وإذا سألتكم الإنسانيّة ماذا فعلتم من أجلها ، قولوا : لقد شربنا دموعَكِ بقلوبنا وطبّعنا ابتساماتك في أرواحنا .

وإذا سألكم ربّكم حساباً عن الفسحة الّتي قسمها لكم من العمر ، قولوا : اللهمّ لقد طلبناك في أنفسنا فأهّلتنا أن نراك في كلّ نفس .

دار الأدب

ألقيت في حفلة أقامها الشباب المثقف في صافيتا – بلاد العلويين – في ٢٣ أيلول سنة ١٩٣٢ .

حيثما توجّهت في هذه البلاد الجميلة هبّت عليّ نسمات مباركة من اليقظة الروحيّة التي تتمشّى اليوم فيها . والنسمة التي هبّت عليّ من أرواحكم تكاد تكون موجة تغمرني وتغرقني بما فيها من طيّب المشاعر وصادقها .

ما حلمت قطّ ليالي كنت وراء المحيط أضع كلمات سوداء على صحائف بيضاء أن تلك الكلمات ستكون لي أشعّة تهديني إلى قلوبكم . وأصابع أتلمّس بها أشواقكم . وأن الصحائف ستكون أبسطة من أثير الروح تحملني إليكم قبل أن يحملني البخار بسنين كثيرة وحين لم يكن من تعارف حسّي بيننا على الإطلاق .

وأنتم لو سألتموني عن أقصى ما أرجوه من الناس لأجبتكم : محبتهم . فأنا لا أطلب مالهم ، ولا جاههم ، ولا إعجابهم ،

ولا تصفيقهم . وما دام لي من يحبّني فأنا غني . وما دام لي من أحبّهم فأنا أغنى وأغنى .

تعرفون أنّني لا أعبأ بالسياسة وتقلّباتها أكثر ممّا أعبأ بغيوم تقنّع وجه السماء إلى حين ثمّ تنجلي . غير أني سمعت البعض منكم يقول : بلادنا مصلوبة . وأنا أقول : إني أقدّس المصلوب وأحبّ بلادي مصلوبة وأكرهها صالبة . فللمصلوب ثوابه . أمّا الصالب فسيأتيه يومه .

وسمعت الآخرين يقولون : الغير يسرق منّا خيرات بلادنا . وأنا أقول : خيرٌ لبلادي أن تكون مسروقة من أن تكون سارقة . فللسارق وصمة السارق وعاره وعقابه . أمّا المسروق فمن ذا يدلّ عليه بإصبع الشكّ والتحقير ؟

وسمعت من يقول إن بلادنا منحطة متأخرة . فلهؤلاء أقول : إن بلاداً إذا جئتُ أقرع بابها وجدتُهُ مفتوحاً لأرفع وأسبق من بلاد لا تفتح لي بابها مهما قرعت إلاّ إذا كانت يدي مثقلة بالفضة والذهب .

أمّا وقد اجتمعنا هنا باسم الأدب لا باسم السياسة فأنا محدّثكم قليلاً عن ديني الأدبي :

لقد دعاني البعض هدّاماً . أجل إنّني لهدّام . غير أنّني أهدم لأبني . والذي أهدمهُ ليس كما يتوهّم البعض أدباً قديماً . والذي أبنيه ليس ما يدعونه أدباً جديداً . فالجمال

والحقّ — وهما كلّ الأدب — لا يشيخان ولا يتداعيان ولا يقوى بشر على هدمهما .

إنّما أهدم كلّ ما كان في نظري خلواً من الجمال والحق — قديماً كان أم جديداً — وأساعد في تأييد كلّ ما يتناول حياته من معين الجمال الذي لا ينضب ، ومن أوقيانوس الحقّ الذي لا شواطىء له . إنّني أجلّ الجمال عن مساكنة الشناعة ، والحقّ عن مؤاخاة الباطل . لذلك فكلّ بنيان شُيّد للباطل ، وإن يكن جميل الصنع ، ليس جميلاً ، وهدمه أولى لئلاّ يُضلّ الناس . ولا فرق في ذلك بين جديد وقديم .

ما أهدمهُ إنّما أهدمهُ لأسهّل الطريق لنفسي ولكلّ من كانت طريقهُ طريقي . وكلّ ما أبنيه إنّما أبنيه مساكن لنفسي . من وجد في مساكن نفسي مساكن لنفسه فأهلاً به . أمّا الذي يجد مساكني باردة وعابسة وقاسية فلا حرج عليه لو ظلّ خارجاً .

من شاء أن يعطي فليكن أوّلاً على ثقة من أن في يده ما هو أهل للعطاء . أمّا اليد الفارغة فحذارِ من أن تمتدّ للإعطاء . لأن ما تعطيه ليس إلاّ خيبة وفشلاً .

من شاء أن يحرّر فعليه أوّلاً أن يتحرّر . أمّا من كان عبداً لنفسه فحذارِ من أن يدعو الناس إلى الحريّة . لأنّهُ لا يقودهم إلاّ إلى عبوديّته .

من شاء أن ينير فعليه أوّلاً أن يستنير . أمّا القلب المظلم فحذارِ من أن يدعو الناس إلى النور لأنّه لا يدلّهم إلاّ على ظلماته .

وما داء الأدب اليوم وفي كلّ يوم — في هذه البلاد وفي كلّ بلاد — إلاّ أن الكثير من الأيدي الفارغة ينادي : تعالوا خذوا ! والكثير من النفوس المستعبَدة يصيح : هو ذا طريق الحريّة ! والكثير من القلوب المظلمة يهتف بالناس : اتبعوني إلى النور !

لقد تفقدت في هذه الأثناء قسماً من ربوعكم وما فيها من الآثار القديمة . فزرت قلعة الحصن وبرجكم ، برج صافيتا . وكنت حيثما مشيت ، وكلّما فسحت لخيالي المجال ، شعرت كأنّ الجيوش التي تألّبت فوق هذه البطاح والهضبات تمشي معي . وكأنّ الشعوب التي تملّكت هذه الأرض لمحة من الزمن فما لبثت الأرض أن تملكتها ، تسألني من أنا ولماذا أمتهن حرمة مساكنهم وأزعج سكينة لحودهم .

وكنت أجهد خيالي لأقرأ أخلاقهم في آثارهم . وأستخرج من الفضاء رسوم ميولهم وشهواتهم وغاياتهم . وأقتنص من الأثير أصواتهم . وأقول في نفسي : لو كان لهم متنبٍّ أو أبو علاء ، لو كان لهم هوميروس أو دانتي ، لما أجهدت خيالي مثل هذا الإجهاد . ولأبصرت وجوههم ولمست ميولهم

وشهواتهم وغاياتهم . وسمعت أصواتهم في آثار أدبائهم .

إن آثاراً يتركها الإنسان في الحجر تندثر باندثار الحجر . لكن آثاراً ينقشها الإنسان في روح أخيه الإنسان لباقية إلى الأبد لأن الروح باقية إلى الأبد .

والأدب الذي هو بحقّ أدب يجب أن يكون نقشاً في الأرواح لا غشاوة على الأبصار . فاطلبوا معي أن يكون لنا من أدبائنا رسل للروح لا حاكة للأقنعة المزركشة .

شركة الإنسانية

مقتطفات من خطبة ألقاها في مأدبة في بترومين – الكورة – لبنان – ١٥ تشرين الأول سنة ١٩٣٢ .

لقد أوليتموني منّة كبيرة . لا لأنّكم أطعمتموني من زادكم – وزادكم طيّب . ولا لأنّكم سقيتموني من خمركم – وخمركم لذيذة . ولا لأنّكم استحسنتم جهودي الأدبيّة – ولاستحسانكم قيمته عندي . بل لأنّكم قد وسّعتم ذلك الباب في روحي الذي يدخل منه الناس . وضيّقتم – بل كدتم تسدّون – الباب الذي يخرجون منه . فأنا ، ما دام في الأرض إنسان تضيق دونهُ روحي ، لستُ أهلاً لتكريم إنسان .

* * *

ألا وسّعوا أبواب أرواحكم كيلا يظلّ أحد خارجاً . فإن رأيتم أعمى ، وكنتم مبصرين ، فاعلموا أنّكم عميان مثله ما لم تعيروه من بصركم بصراً . فما زالت طريقه مظلمة فطريقكم مظلمة . لأن طريقه وطريقكم واحدة .

وإذا التقيتم مُقعَداً ، وكانت لكم قوّة تسابق الريح ، فاعلموا أنّكم مُقعَدون مثله ما لم تعطوه من سرعتكم جناحاً . لأن محجّتكم ومحجّته واحدة . ولن تدركوا محجّتكم حتى يدرك محجّته .

وإذا مررتم بأبرص ، وكنتم طاهرين ، فاعلموا أنّكم بُرصٌ مثله إذا ما أملتم وجهكم عنه . أمّا إذا نقّيتموه بطهركم فكأنّكم نقّيتم أنفسكم من برَص خفي .

* * *

لا تبغضوا أحداً من الناس . وإذا كان لا بدّ لكم من البغض فأبغضوا كلّ ما في الناس من ضعف وإثم .

لا تبغضوا الشرير ، وأبغضوا الشرّ . لأنّكم إن أبغضتم الشرّير أصبحتم أشراراً مثله . أمّا إذا أبغضتم الشرّ فقد تقتلونه وتهتدون إلى الخير .

لا تكرهوا الظالم ، واكرهوا الظلم . لأنّكم إن كرهتم الظالم كنتم ظالمين مثله . وإن أحببتموه عرفتم العدل ورددتم الظالم إليه .

لا تهربوا من الجاهل واهربوا من الجهل . لأنّكم عندما تهربون من الجاهل لا تهربون إلاّ من أنفسكم . أمّا هربكم من الجهل فهو اقتراب من المعرفة .

* * *

قبل أن تفتّشوا عن فيلسوف أو شاعر فتّشوا عن رجل صالح .

وقبل أن تطلبوا واعظين بالحقّ فتشوا عن رجل يحيا حياة الحقّ .

وقبل أن تطلبوا مَن يرسم لكم الجمال بالكلام والألوان اطلبوا رجلاً يرسم الجمال بأعماله من يوم إلى يوم .

نحن في حاجة إلى مثال جميل أكثر منّا إلى رسوم جميلة .

إني رأيت الناس كالأزهار الشائكة : إن أنت جئتها مغتصباً أدمتك . وإن جئتها كالنحلة حاملاً إليها سلام الله ومحبّة رفيقاتها وأخواتها فتحتْ لك قلوبها وأعطتك كلّ ما فيها من حلاوة .

فاحملوا معي سلام الله للناس ، ومحبّة النّاس للنّاس .

ينابيع الألم

ألقيت في «النادي الأدبي» بدمشق في
كانون الثاني سنة ١٩٢٣ .

يا أهل دمشق — يا أهلي :

دعوتموني لتكرموني . فكنتم أكرم مني وأحسن ظنّاً بي من نفسي . فأنا ما سمعت لساناً يمدحني حتّى سمعت ألف لسان يؤنّبني .

لأنّني إن تكن لي أذن تسمع تهاليل الناس فلي آذان تسمع زفراتهم .

وإن تكن لي عين تبصر ابتساماتهم فلي عيون تبصر عبراتهم.

وإن يكن لي قلب يرقص في أعراسهم فلي قلوب تتفتّت في مآتمهم . ومآتم النّاس أبداً تبكّت أعراس النّاس . وعبراتهم تضحك من ابتساماتهم . وزفراتهم تهزأ بتهاليلهم . فكأني بهم يمشون بقلوبهم على شظايا من زجاج . وكأنّي بأكثر ما يعظّمونه من أعمال أفرادهم لا يتعدّى استبدال شظيّة بيضاء بحمراء . أو صفراء بخضراء . أمّا آلامهم فهي هي .

فالألم يتصدّر مجالسهم ، ويترأس موائدهم ، وينام في أسرّتهم .

والألم يطبخ ما يأكلون ، ويستقطر ما يشربون ، وينسج ما يلبسون .

والألم يتخطّر في أزقّتهم ، ويبيع ويشري في حوانيتهم ، ويزرع ويحصد في حقولهم .

والألم يعلّم في مدارسهم ، ويكرز في معابدهم ، ويعشّش في مساكنهم .

لعلّكم لو فتّشتم الأرض لما وجدتم غير الألم جامعة تجمع الناس كلّهم على السواء . فهم لا يجمعهم دين ، ولا علم ، ولا أدب ، ولا جنس ، ولا لغة ، ولا نزعة واحدة سماويّة أو أرضيّة . أمّا الألم فهو السلك الخفيّ الذي تنتظم فيه كلّ قلوبهم انتظام الخرز في القلادة . وهو العلَم الذي يخفق فوق كلّ أعلامهم . والفضاء الذي تسرح فيه كلّ آمالهم وأهوائهم . والميزان الذي يستوي في كفّتيه غالبهم ومغلوبهم . وعالمهم وجاهلهم . وضعيفهم وقويهم . وفقيرهم وغنيهم .

ما كنت لأحدّثكم عن الألم ، وفي مثل هذا الاجتماع ، لولا أنّي أراه عدوّ الإنسانيّة الألدّ ومخلّصها الأكبر . فهو عدوّها لأنّه أبداً يعكّر عليها كلّ ينبوع تحاول أن تنهل منه السعادة . وهو مخلّصها لأنّه أبداً يذكّرها بأن سعادتها في غير

تلك المناهل .

ولن يهتدي الإنسان إلى ينابيع آلامه فيُعرض عنها وإلى ينبوع خلاصه فيُقبل عليه حتى يدرك أن تلك وهذا تتفجر منهُ ، وتجري فيه ، وتنتهي إليه . فجحيمه في نفسه . وفردوسه في نفسه . وهو أبداً يحصد ما يزرع . وإذ أنّه يزرع أوهاماً تراه لا يحصد إلاّ أوهاماً فيتألّم لأن كلّ وهم ليس إلاّ ينبوع ألم .

إن الوهم الذي تتفرّع منه كلّ أوهام الإنسان هو اعتقاده أن لهُ ذاتاً منفصلة عن كلّ ذات ، وحياة مستقلّة عن كلّ حياة . ولو سأل الإنسان نفسه يوماً : « من أنا ؟ » لما تمكّن من إقامة حدّ بينه وبين شيء .

أوَلستم ترون أنّكم إذا ما شربتم قطرة من الماء فكأنّكم شربتم البحار كلّها ؟ لأنّ لكلّ قطرة في كلّ بحر صلة بالقطرة التي تشربون .

وإذا ما أكلتم ثمرة فكأنّكم أدخلتم إلى جوفكم الحياة بأسرها . لأن كلّ ما في الحياة قد تعاون في تكوين تلك الثمرة .

وإذا ما أبصرتم مذنّباً هائماً في الفضاء فكأنّكم أبصرتم كلّ ما في الفضاء . لأن الفضاء هو كفّ الله القابضة على كلّ شيء وأقصى ما فيها ملتصق بأدنى ما فيها .

وإذا ما صافحتم إنساناً فكأنّكم صافحتم كلّ إنسان ، من آدم حتى آخر آدمي يمشي على سطح هذه الأرض . لأنّ كلّ إنسان يحمل في نفسه كلّ الناس .

وهكذا فكيفما انقلبتم تناولتم من الحياة ما يستحيل عليكم فصله عن سواه وعنكم . ووجدتم أنّكم في كلّ شيء . وأن كلّ شيء فيكم ، وأنّكم لا يحصركم مكان ولا يحدّكم زمان . فإذا كنتم ، وأنتم مقيّدون بحواسكم ، يتعذّر عليكم أن تقيموا فاصلاً بين محسوس ومحسوس ، فكيف بكم لو انطلقتم من عالم الحسّ إلى عالم الروح ؟

في ذلك العالم — عالم الروح — يستحيل عليّ وعليكم أن نقيم حدوداً وفواصل . إذ ليس هنالك شيء له شكل أو وزن أو قياس . وليس هنالك « أنا وأنتم » . بل هنالك كلية شاملة لا تتجزّأ ولا تتقسّم . فما مسّتْ في أجسادكم روح إلاّ مسّتْ في جسدي . ولا دقّ لكم نبضٌ إلاّ سمعته في قلبي . فما نحن ، وإن تنوّعت مظاهرنا ، إلاّ كالأنابيب في الأرغن ، نجيب بأصداء مختلفة أمّا الهواء الذي ينفخ فينا فواحد ، واللحن الذي نعطيه واحد ، واليد التي تعزف علينا واحدة . وما أنباض الحياة المتعدّدة إلاّ نبض واحد لأن مصدرها قوّة واحدة .

فأنتم إذا ما أطربكم خرير جدول فإنّما يطربكم خرير الحياة في داخلكم لا في الجدول .

وإذا ما أبهجكم منظر مرج زاهٍ فإنّما يبهجكم زهو الحياة في قلوبكم لا في المرج .

وإذا ما أثملكم عبير زهرة فإنّما يثملكم عبير الحياة فيكم لا في الزهرة . وبالعكس ، فأنتم ما كرهتم شيئاً إلاّ كرهتم فيه أنفسكم . وما هربتم من شيء إلاّ هربتم من أنفسكم . لأن الحياة التي فيكم هي في ما تكرهون . والجوهر الذي فيكم هو في الشيء الذي منه تهربون .

إني رأيت الناس يرهنون قلوبهم للألم ، وأفكارهم للشكّ ، وحياتهم للموت ، لأنّهم في كلّ ما يفعلون يحاولون إحياء ما لا حياة له وإماتة ما لا حياة لهم إلاّ به . ورأيت مع الجامعة أن ذلك « باطل الأباطيل وقبض الريح » .

أمّا الذي لا حياة له فهو الذات المنفصلة عن الله . وأمّا الذي لا حياة إلاّ به فهو الله نفسه .

ولكم في سِفر التكوين أجمل رمز إلى ذلك . فالإنسان الأوّل الذي كان واحداً مع الله يماشيه ويجالسهُ ويحادثهُ في جنّة عدن ، توهّم بعد أن أكل من الشجرة المحرّمة أنّه غير الله . فهرب من وجهه واستتر بأوراق التين . وما أوراق التين هذه إلاّ رموز الأوهام التي أخذ الإنسان يعزّز بها وهمه الأكبر . وأعني ذاته المنفصلة عن الله ، والتي لا كيان لها على الإطلاق . إذ لا وجود لشيء إلاّ ضمن علّة الوجود .

منذ ذلك الحين راح الإنسان يحيا بما فيه من الله ويموت بما فيه من وهمه . فهو خالق الموت . وحاشا مَن لا يموت أن يكون علّة الموت . وعندما خلق الإنسان الموت لنفسه خلق الموت لكلّ ما يتناوله بذاته المائتة . أمّا سبيله إلى الحياة ففي نكران ذاته الموهومة أو في نزع أوراق التين عن ذاته الحقّة التي هي الله .

في هذا الزمان الذي كثرت علومه وفنونه ، وفلسفاته واختراعاته ، والذي لسبب أجهله يدعونه « عصر النور » ، لقد أصبح مَن يجرؤ أن يتكلّم عن الدين وعن الله في خطرٍ من تهكّم الناس . ولكم سمعت أبناء هذا العصر يقولون ، في هذه البلاد وفي سواها ، إنّ بليّة الناس في كثرة أديانهم .

أمّا أنا فأقول لكم إن بليّة النّاس في هذه البلاد وفي كلّ بلاد إنّما هي في قلّة دينهم . فهم قد نبذوا أديانهم أو تعلّقوا منها بالقشور وصمّت مماحكات اللاّهوتيين وسفسطات المتدينين آذانهم عن أصوات الأنبياء الذين أسّسوا أديانهم .

ولو فهم ذو دين دينه لما أبغض ذا دين آخر . لأنّ الأديان في جوهرها واحد . فكلّها يقول بأنّ علّة الوجود واحدة لا تتجزّأ ولا تحدّ . وأن كلّ ما في الأكوان فيضان منها فهو مثلها لا يتجزّأ ولا يحدّ . وأن الإنسان الذي جزّأ نفسه فجزّأ معها كلّ شيء سيبقى هدفاً للآلام بأنواعها حتى ينكر ذاته

المجزّأة ويحيا بذاته الموحدة التي هي مع الله ومنه وفيه .

ما توجّعت للناس يتألمون قدر ما أتوجّع لهم ، والألم عدوّهم الألد ، يتحاسدون ويتنازعون ويتناهشون بدلاً من أن يتكاتفوا لمكافحة عدوّهم المشترك .

تقولون لي : « بلى . فما نحن في علومنا — لا سيما في الطب — غير يد واحدة في مقاومة الألم . » أمّا أنا فأقول لكم إن أمراض الجسد ليست إلاّ أعراضاً لأمراض الروح . فأنتم إن داويتم بالعقاقير صداعاً في الرأس فبماذا تداوون صداع عاشق خانه معشوقه ؟

وأنتم إن تخلّصتم من ضرس مسوّس باقتلاعه فكيف تقتلعون قلباً نخره سوس الحسد أو البغضاء أو الخيبة ؟

وأنتم إن دخلتم بمبضعكم جوف الإنسان وبترتم منه الزائدة المعويّة فبماذا تدخلون روحه لتبتروا منها زوائد الوهم والخوف والهمّ ؟

لعسري إن كلّ ما نلجأ إليه من الحيل للخلاص من الألم ليس إلاّ ضروباً من التخدير . فنحن ما زلنا هاربين من أنفسنا سنبقى هاربين من الألم إلى الألم . ومن الموت إلى الموت .

مَن تعلّق بذاته المائتة أضاع ذاته الحيّة . ومن أنكر ذاته المائتة وجد ذاته التي لا تموت . ومن وجد ذاته التي لا تموت وجد الحياة كلّها فيها . فنكران الذات هذا إنّما هو تثبيت

الذات . لأنّه لا يعني نكران شيء في الوجود بل تمديد الذات إلى أن لا يبقى في الوجود ما هو خارج عنها . وهو لا يعني كره الذات بل محبّة الذات الكائنة في كلّ شيء .

لذلك أقول لكم إنّكم إن شئتم الخلاص من الألم فعليكم أن تحبّوا ذواتكم . غير أنّكم إن أحببتم كلّ ما في الكون إلاّ دودة واحدة فأنتم ما برحتم تكرهون ذواتكم بقدر كرهكم لتلك الدودة . وسيبقى لكم في كرهكم ينبوع ألم . ولن ينضب هذا الينبوع حتّى ينضب كرهكم .

وأنتم إن تحرّرتم من كلّ شيء سوى عصفور في قفص فأنتم عبيد لذلك العصفور ولكم فيه ينبوع ألم . ولن تتحرّروا منه حتّى يصبح طليقاً منكم .

وأنتم إن صلّيتم كلّ حياتكم ولم ينطق لسانكم إلاّ بلعنة واحدة فلكم في تلك اللعنة ينبوع ألم . لأنّكم لم تلعنوا إلاّ أنفسكم . ولن تنعتقوا من تلك اللعنة حتّى تحوّلوها إلى بركة .

وأنتم إن أنصفتم الناس كلّهم وظلمتم طفلاً واحداً فلكم في ظلمكم هذا ينبوع ألم . لأنّكم لم تظلموا إلاّ أنفسكم . ولن تتخلّصوا من ظلمكم حتّى تنصفوا .

أمّا متى اقتبلتم الحياة كلّها مثلما تقتبل البحار أنهارها ، والأرض أثمارها ، فحينئذ إذا ذبحتم لتأكلوا كانت ذبيحتكم قرباناً تقدّمه نفسكم لنفسكم .

وإذا ما زرعتم لتحصدوا كان ما تزرعون وما تحصدون خلواً من الشوك والزوان .

وإذا هتفتم : « يا أخي » عاد هتافكم إليكم من فم كلّ إنسان .

وإذا ناديتم الحياة بصوت واحد أجابتكم كلّ أصوات الحياة .

وحينئذ كانت الأرض أرضكم ، والسّماء سماءكم .

العالم الباطني

ألقيت في الحفلة السنوية للكلية الأرثوذكسية
في حمص ، أواخر حزيران سنة ١٩٣٣ .

في مثل هذه الأيّام من كلّ سنة تفيض من عيدان منابر المدارس سيول من الخطابة يخيّل إلى من يسمع عجيجها ، ولو عن بعيد ، أنّها لن ترتدّ عن الأرض إلاّ وقد طهّرتها من كلّ أدرانها ولقّحتها بلقاح حياة جديدة لا مجال في أحضانها إلاّ للجمال والحقّ والطمأنينة الأبديّة .

غير أن العام يزدرد العام ، والجيل يدفن الجيل ، والأرض ما تبرح تنبت العوسج والبنفسج . والمدارس ما تفتأ تستقبل جيوشاً من الجياع والعطاش إلى المعرفة لتودّعهم بعد حين وهم أشدّ جوعاً وعطشاً من ذي قبل . والخطباء ما يزالون يخطبون — وفي ذمة الفضاء الرحب ما قالوا وما يقولون !

من المبتذلات التي يردّدها خطباء المدارس على مسامع التلامذة المنتهين أنّهم سيخرجون من ميناء المدرسة الأمين إلى بحر العالم الصاخب حيث الحياة كفاح . وحيث الفوز للقوي .

وأنا كذلك أقول لشبان هذه المدرسة المنتهين :

أجل ، إن العالم لبحر صاحب — لكنّكم ذلك البحر .
والحياة كفاح — لكنّكم المكافِحون فيها والمكافَحون .
والغلبة للقوي — لكنّكم الغالبون والمغلوبون .

فما العالم — والمدرسة بعض منه — إلاّ مرآة تريكم ما ظهر وما استتر منكم . فحيثما وجدتم شرّاً فتشوا عنه في أنفسكم . وحيثما وقعتم على خير فتشوا عنه في أنفسكم أيضاً . لأن عيناً لا شناعة فيها لا تبصر الشناعة ولن تبصرها . فهي كعين الرضا « عن كلّ عيب كايلة » وكعين المحبّة تبصر في القرد غزالاً وفي الإساءة إحساناً . كذلك لا يجد الغش منفذاً إلى قلب لا غشّ فيه . ولا تلقي الرجاسة مرساتها في نفس لا رجاسة فيها.

كلّما جنح فكري إلى مثل هذه التأمّلات تذكّرت حكاية رواها لي صديق حمصي عن بدوي دخل المدينة لأوّل مرّة في حياته . وكان طاوي البطن . فمرّ بمحلّ تفوح منه رائحة المأكولات الشهيّة ، ورأى في مقدمته أطباقاً من الحلوى ، ورأى الناس يدخلون فيأكلون ثم يخرجون فقال : « والله إن صاحب هذا البيت لرجل كريم ومضياف كبير . » ودخل فأكل وشرب حتى التخمة ثمّ سأل عن صاحب البيت ليشكر له ضيافته فطالبه بالثمن . وإذ لم يفهم البدوي قصده لأنّه قطّ لم يدفع ثمناً لضيافة ، ساقه صاحب المطعم إلى القاضي .

وهذا حكم عليه بالتشهير . فأركبوه حِماراً جَرِباً وجعلوا وجهه نحو ذنب الحمار وأرسلوا أمامه طبّالاً ً وراحوا يطوفون به شوارع المدينة والناس يصفقون ويصفرون ويقهقهون تهكماً عليه . وإذا هو على ذلك مرّ به بدوي من عشيرته وسأله عن معنى ذلك المهرجان ، فأجابه بلهجته البدويّة ووجهه طافح بالبشر وعيناه تبرقان ببريق الغبطة الّتي ما بعدها غبطة : « والله يا خوي أكل محاشٍ . وركب جحاشٍ . ودُقّ يا طبّال دقّ ! »

إن نيّة ذلك البدوي الصالحة نازلت وحدها مئات من النيات الطالحة فدحرتها بغير عناء . وذلك لأنّها قابلتها بمرآة صلاحها الصافية فانعكست صافية صالحة . فبان تصفيقها المتهكّم كما لو كان تهاليل إكرام . وانقلب صفير سخريتها إلى زغاريد محبّة . حتّى إذا كان هنالك من سهام تهكّم وسخرية فقد تكسّرت كلّها على درع نيّة البدوي الصالحة وعادت شظاياها فنشبت في أفئدة الذين راشوها .

عجيبة هي كيمياء الروح . فكم من قلب تمرّون به وتقولون له : أسعد الله صباحك ؛ فيجيبكم :

« لا أسعد الله صباحكم ولا مساءكم . » لأن المرارة المتفشية فيه تحوّل حلاوة سلامكم مرارة نقمة . وآخر تطرحون فيه لعنة فيردّها إليكم بركة . لأن المحبّة السائدة فيه تجعل من لعنتكم بركة . وكم من قلب ترجّون فيه شوكة فينبتها لكم

زهرة . وآخر تُلقون فيه حبّة من العنب فيردّها إليكم حُمَة عقرب .

إذا شئتم أن يعود سلامكم سلاماً إليكم ، وبركتكم بركة ، ومحبّتكم محبّة ، فعليكم بتفقّد العالم الذي هو أنتم لتنبذوا منه كلّ ما ليس يأتلف بطبيعته مع السلام والبركة والمحبّة . وعندما تتفقّدون عالمكم ستجدون فيه عجائب وغرائب ومكنونات كثيرة قد لا تحلمون بها . وإني لمخبركم عن بعضها :

ستجدون في عالمكم ذلك أقزاماً في ثياب جبابرة . لهم أرجل كأرجل الجبابرة لكنّها من خزف ؛ وسواعد كسواعد الجبابرة لكنها من خشب ؛ وألسنة كألسنة الجبابرة ولكنّها من مطّاط .

أولئك الأقزام هم كبرياؤكم وذلّكم وادّعاؤكم المعرفة وأنتم عنها بعيدون . ولن تعرفوهم أقزاماً حتى تجرّدوهم من ثيابهم . ومتى عرفتموهم فاذبحوهم وطهّروا أيديكم من دمائهم . فأنتم أقزام ما زلتم ترون أنفسكم أرفع من الناس أو أحطّ من الناس . وأنتم جبابرة عندما تدركون أن الله الذي فيكم هو في كلّ إنسان .

وستسمعون ثعابين تغرّد كالبلابل ، وستنسيكم عذوبة أغاريدها الموتَ الذي في أنيابها ، فتجعلون لها من قلوبكم

أقفاصاً ، ومن دمائكم شراباً ، ومن لحومكم غذاء . تلك الثعابين هي شهواتكم الدنيئة وأغاريدها هي الأوهام التي تجمّلونها بها كيما تظهر في أعينكم كما لو كانت من مجنّحات الفردوس لا من زحّافات جهنم . وستبقى سمومها ترعى في قلوبكم ما دامت أغاريدها تسرح في آذانكم .

وستبصرون سلاحف تتمرّغ في الأوحال ولها أجنحة كأجنحة النسور . هي أفكاركم التي تولد وتموت في أوحال المعيشة . والأجنحة أشواقكم الجامحة إلى الفضاء الفسيح . وستمرّ بكم حالات تقولون فيها : يا ليتنا سلاحف ! وأخرى تقولون فيها : يا ليتنا نسور ! وستبقون لا سلاحف فتُعرفون ولا نسور فتحلّقون إلى أن يتغلّب النسر فيكم على السلحفاة .

وستلتقون عمياناً يقودون مبصرين ولا يعثرون . ومبصرين يقودون عمياناً من حفرة إلى حفرة . أمّا العميان فإيمانكم النيّر . وأمّا المبصرون فشكوككم المظلمة . وستشتهون أحياناً لو كنتم عمياناً . وأحياناً لو كنتم مبصرين . وستظلّ طريقكم سلسلة محافر ومعاثر حتّى يتخلّى مبصروكم عن القيادة لعميانكم .

وستعثرون على جماجم كثيرة مصطفّة على شاطىء البحر وقائلة فيما بينها : « إن هذا البحر يحرمنا لذّة النوم . ولسنا نرى نفعاً من وجوده . فتعالوا نرجمه بالحجارة . » ذلك البحر هو الحياة . والجماجم هي حواسكم القاصرة عن الخوض

فيه لسبر غوره وتفهّم أسراره ، فلا تسمع منه إلاّ هديره . ألا علّقوها بحجارة ثقيلة واطرحوها في البحر . فهي لن تعرفه حتى تغرق فيه .

وستلتقون عند كلّ عطفة من طريقكم رهباناً كثيرين على عيونهم أقنعة كثيفة ، وفي أيديهم سبحات طويلة ، وعلى ظهورهم مصابيح مشعشعة . وسيقول لكم كلُّ واحد منهم : اتبعوني فأنا أعرف الطريق .

أولئك الرهبان هم مذاهب العالم . والأقنعة على عيونهم هي أقنعة التعصب . والسبحات في أيديهم هي الترّهات التي يتلهّون بها عن لباب الدين . والمصابيح المعلّقة بظهورهم هي الحقيقة التي فاضت عليهم من أرواح أنبيائهم والتي لا ينيرون بها ولا يستنيرون . فحذارِ من أن تتقنّعوا بأقنعتهم أو تسبّحوا بسبحاتهم . أمّا المصابيح التي على ظهورهم فاستنيروا بنورها . فأنتم عندما تبصرون الحقيقة في مذهبكم تبصرونها في كلّ مذهب. وما زلتم تنكرونها في مذاهب الغير فاعلموا أنّكم عميان عنها في مذهبكم .

وستصلّون من أجل أشياء كثيرة ولا تنالونها . وستنالون أشياء كثيرة تطلبون دفعها عنكم . فتقولون : لا عدل في الأرض ولا إله في السماء .

ألا فاعلموا أن الحياة فيكم لا تعطي ولا تأخذ إلاّ حاجتها ،

وأنّكم عندما تطلبون أمراً بشفاهكم أو بقلوبكم ولا تنالونه فذلك لأن في أرواحكم ملائكة كثيرين يصلّون صامتين لخلاصكم ممّا أنتم طالبون . وعندما تنالون عكس ما تطلبون فاعلموا أن في أعماقكم قوًى كثيرةً تطلبه وأنتم غافلون . ومن ثمّ فلستم مستقلّين في ما تنالون وما لا تنالون . فما وُلدتْ لغصنٍ ثمرةٌ إلاّ احتفت بولادتها الشجرة كلّها . ولا يبست شجرة في غاب إلاّ مشت في جنازتها كلّ أشجار الغاب .

وستقولون إذا ضاقت بكم بقعة من الأرض : إنّها لأرضٌ مصخرة ومشوكة وهي تخنق أثمارنا في المهد . فلنرحل إلى أرض لا صخور فيها ولا أشواك .

وعندما تقتلعون جذوركم لتدفنوها في تربةٍ بتولٍ ، لا تبقرون الأرض بمعاولكم حتّى تبصروا جذوركم وأشواككم وصخوركم قد سبقتكم إليها .

لأنكم حيثما انطلقتم لا تأخذون معكم غير أنفسكم . وما تهربون منه هنا تلاقونه هناك إلاّ إذا طردتموه من نفوسكم وأوصدتم كلّ أبوابها في وجهه إلى الأبد . وحينئذٍ كنتم أنقياء هنا وفي كلّ مكان ، وكان لجذوركم غذاء في كلّ تربة .

ألا تعلّموا منذ الآن أن ترودوا عوالم أرواحكم . فآفاقها

لا تُحَدّ . وعجائبُها لا تُعَدّ . وما العالم الخارج عنكم غير خيال العالم المنطوي فيكم .

فإن شئتم أن يكون عالمكم الخارجي جميلاً كحّلوا أعينكم بمرود الجمال .

وإن شئتموه طاهراً فاغسلوا أيديكم بماء الغفران وعطروها بشذا المحبّة .

وإن شئتموه فسيحاً فاتخذوا لأرجلكم أجنحة من الخيال الحرّ .

وإن شئتموه كاملاً فأضرموا في قلوبكم نار الإيمان الحيّ .

جناحا البشريّة

ألقيت في الحفلة السنوية لمدرسة البنات
الأرثوذكسية في حمص ، أواخر حزيران
سنة ١٩٣٣ .

الرجل والمرأة — جناحا طائر واحد هو البشريّة . وكفّتا ميزان واحد هو النظام السرمديّ . وأقنوما كائن واحد هو الله . فما صفّقت البشريّة بجناح إلاّ صفّق أخوه معه . ولا هوَتْ كفّة الرجل يوماً إلاّ هوتْ في الحال كفّة المرأة إلى مستواها . أو ارتفعت كفّة المرأة إلاّ ارتفعت كفّة الرجل فوازنتها . لا ولا دقّ قلب الله في أنباض الرجل إلاّ دقّ في أنباض المرأة . فهما لحم واحد ، ودم واحد ، وعظم واحد ، وروح واحد .

أقول ذلك وكأني أقرأ في أفكاركم — لا سيما في أفكار السيدات — ما معناه :

« إنّك لو سألت التاريخ لكذّبك . والأرض لخذلتك . والسماء لضحكت منك . فالمرأة كانت ولا تزال مظلومة من

الرجل . وحظّها من الحياة كان وما يزال أقلّ من حظّه .

لو كان لك أن تتمشّى في سراديب العصور الخالية لغمرتك أمواج من الدموع والزفرات — هي دموع وزفرات سبايا الحروب وأراملها . والحروب لا تشنّها إلاّ مطامع الرجل الغشيمة .

ولو كان لك أن تكشف عن صدر الأرض لوجدت فيه كلوماً كثيرة لمّا تندمل بعد — هي لحود وئيدات البشريّة اللواتي زوّجهن آباؤهنّ من القبر قبل أن تطلّقهن الحياة . واللحود هذه حفرتها يد الرجل الأثيمة .

ولو كان لك أن تستجوب السماء لأجابتك بألسنة من نار — هي الألسنة التي التهمت أجساد الملايين من النساء ، والحياة تختلج فيها ، مع أجساد رجالهنّ ، وقد امتصّ الموت منها الحياة . والنيران تلك أضرمتها يد الرجل القاسية . »

إني لأقرأ ذلك — وأكثر من ذلك — في أفكاركم . وأعود فأقول لكم إن تاريخ البشريّة هو غير ما يدوّنه الناس باسم التاريخ . فالناس لا يبصرون من حياتهم إلاّ ظواهرها . ولا يسجّلون من حوادثها إلاّ القليل من سطحياتها . فماذا عساهم يعرفون عن ماضي البشريّة السحيق ، وعن حاضرها الذي كان في ماضيها ، وعن مستقبلها الكائن في حاضرها ؟

ماذا عساهم يعرفون عن أحلامها المقنّعة التي تدبّ في

سكينة الليل وحلبة النهار ، وعن أفكارها الخفيّة التي تنساب في مجاري الفضاء الأوسع ، وعن شهواتها الجشعة التي ترعى صامتة في قلوبها ؟

وما زالوا يجهلون كلّ ذلك فهم يجهلون الينابيع السريّة التي تنبثق منها أعمال البشريّة الظاهرة ، ويجهلون قصد البشريّة من أعمالها وقصد الحياة من البشريّة . لذلك فلا تاريخهم تاريخ ، ولا حجّتهم حجّة .

غير أن ما يجهله الناس لا تجهله الحياة . فهي تسجّل كلّ ما يغفلون وما يسيئون تسجيله . وسجلّها كتاب كامل ، دفته الواحدة الأزل والأخرى الأبد . وليس يحسن القراءة فيه إلاّ من تفتّحت عين إيمانه . وإن شئتم فقولوا — عين خياله . فالإيمان والخيال توأمان بل هما واحد . وكلاهما أبعد مرمى وأجلى بصراً بما لا يقاس من العقل المدّعي بغروره ومن ابنه الحبيب الذي أسماه المنطق . فالعقل إذا تسامى كان خيالاً . والخيال إذا انحط صار عقلاً . والمنطق إذا لانت مفاصله صار إيماناً . والإيمان إذا أصيب بتصلّب في شرايينه صار منطقاً .

وهكذا فالذي يقرأ سجلّ الحياة بعين إيمانه لا بدّ من ن يرى ترابطاً يفوق العقل والمنطق بين كلّ أجزائه . فبين ل حرف في الفاتحة وآخر حرف في الخاتمة صلة السبب

والمسبّب أو العلّة والنتيجة . ومثلها بين كلّ حرف من حروف ذلك المصحف الرهيب وكلماته ومقاطعه وفصوله .

وعندئذٍ لا يصعب على القارىء أن يبصر في قبر الوئيدة قبر الوائد — فما كلّ مَن تحت التراب أموات ، ولا كلّ من فوق التراب أحياء . أو أن يرى يد الوائد القويّة ويد الوئيدة القاصرة تحفران القبر معاً . فما مات إنسان من يد إنسان إلاّ كان الاثنان شريكين في تلك الميتة . وما انقضّت صاعقة على بيت فهدّته إلاّ كان للبيت في هدّه ما للصاعقة .

لو جئت أستغفر المرأة عن كلّ مآثم الرجل ضدّها لقضيت عمري مستغفراً ولم أبلغ نهاية .

ولو رحت أستغفر الرجل عن كلّ مساوىء المرأة إليه لقضيت عمري كذلك مستغفراً ولم أبلغ نهاية .

غير أني لستُ أرى ذنباً أستغفر عنه المرأة إلاّ رأيت من العدل أن أستغفر عنه الرجل . ومن ثمّ فكم ذنب نطلب اليوم عنه المغفرة وغداً نفاخر به كمأثرة ؟

من أجل ذلك أقول لكم إن كلّ مقارنة بين الرجل والمرأة بقصد التفضيل والترجيح هي ضربٌ من البلاهة . وكلّ تحاسب بينهما بقصد تثبيت رصيد حساب لها أو له هو عبث وفضول وتعكير مياه عكرة .. فالمجال مجال أخذ بغير حساب وعطاء بغير حساب . لا مجال لوم وعتاب وتشنيع وتقريع .

والآن لو سألتموني رأيي فيما يدعونه «حرية المرأة» وفي الجهود العظيمة التي تُبذل في سبيلها لأجبتكم أنّها ترتكز على وهم . والوهم هذا هو أن الرجل حرّ والمرأة مُستعبَدة . وكلاهما في نظري ، ما دام مقيداً بالآخر ، حرّ بحريّة رفيقه وعبدٌ لعبوديّته .

أوَتحسبون حارس السجن أكثر حريّة من سجينه ؟ إنّه لسجين مثله وإن لم يقيَّد بسلاسله . أم تحسبون أن أعمى يرافق مبصراً ويظلّ أعمى ؟ إنّه ليستمدّ من بصر رفيقه بصراً وإن لم يكن في حدقته نور .

لو كان الرجل حرّاً لما احتاجت المرأة إلى مطالبته بحرّيتها ، لأن الحرّ لا يستأثر بحريّة أحد . والذي اهتدى إلى الحريّة لا يبقى له من شاغل إلاّ هداية الغير إليها .

أمّا الذي يدّعي أن حريّة غيره في قبضته فلو فتحتم قبضته لما وجدتم فيها إلاّ عقارب العبوديّة . أوَتلك العقارب هي «الحريّة» التي تستعطيها أو تبتزّها المرأة من كف الرجل ؟

لست أقول للمرأة التي تطالب بالسفور أن ترضخ لحجابها – فما الحجاب إلاّ تهكّم من الرجل على خالقه . وإقرار منه بأن الحيوان فيه ما يزال سيّد الإنسان . إنّما أقول لها إن الحرية لا تُبصَر بالعين السافرة . وقد تبصرها عين مقنَّعة . وإن الحجاب الذي يسترها عن الناس ليس من نسيج الأيدي ولا

يمزّق بالأيدي . . . وهو على بصيرة الرجل السافر مثله على بصيرة المرأة المحجّبة ، فعليها وعليه أن يعملا معاً على تمزيقه .

ولا أقول للمرأة التي تطلب حقّ التصويت أنْ لا حقّ لها بذلك . فما دام للرجل صوت في أمر من الأمور فمن الحيف أن لا يكون للمرأة مثله . إنّما أقول لها إن الحرية لم ينلها أحد بعد بالتصويت . وإن الرجل لم يدع بصوته حتّى الآن إلاّ عبوديته . فعليها وعليه أن يسلكا إلى الحريّة سبيلاً غير سبيل التصويت .

ولا أقول للمرأة التي ترغب في الجلوس مع الرجل على منصة القضاء ، أو في مجالس التشريع ، أو في دسوت الحكم أن لا حقّ لها أن تقضي وتشترع وتحكم . إنّما أقول لها إن الرجل الذي تطالبه بحريتها قد اشترع وقضى وحكم منذ أجيال لا تحصى وحتى اليوم لم يهتدِ إلى نظام يقيه الجوع والفاقة وويلات الحروب ويكفل له سلامته وحريّته . بل إنّه كلّما كثرت شرائعه كثرت قيوده ومخاوفه . وكلّما ازداد حكامه ازداد أسياده وظلاّمه . فعليها وعليه أن يسعيا بقلب واحد للتخلّص من قيود المخاوف وسيادة الأسياد وظلم الظالمين بطريق غير طريق الشرع والقضاء والحكم .

أمّا الطريق تلك فواحدة ليس إلاّ ها . هي طريق الإيمان

المبصر الذي قلتُ لكم إنّه يتعدّى حدود العقل وابنه المنطق . لكنّها طريق لا يستطيع أن يسلكها إلاّ الذين أعدّوا من قلوبهم مساكن طاهرة للحياة . أمّا الذين قلوبهم ما برحت مراعي للضغائن ، وأعشاشاً للشهوات ، ومغاور للأحساد ، وملاجىء للمخاوف فلهم في كلّ خطوة عثرة ، وفي كلّ عثرة أنّة . ولا تقلّ عثراتهم وتنقطع أنّاتهم حتى تخفّ أحمالهم . ولا تخفّ أحمالهم حتى يحرقوها في أتون المحبّة الشاملة . وإذ ذاك فأرجلهم أجنحة . وأكفّهم أفضاء . وعيونهم شموس .

وها أنا أقول للفتيات المنتهيات : إن البشريّة تشكو اليوم أكثر منها في كلّ يوم قروحاً وجروحاً كثيرة في قلبها . ولا بلسم لها إلاّ المحبّة . فإنْ أنتنّ شئتنّ أن تكون لكنّ يد في تخفيف آلامها فاعملنّ منذ الآن على تطهير أنفسكن كيما تكنّ آنية صالحة لبلسم الحياة . ولا تقلنّ إنّكنّ قد وفيتنّ قسطاً للبشريّة بحصولكنّ على شهادة من هذه المدرسة . بل اسعين وراء الشهادة المثلى — شهادة الله والناس ، وشهادة قلوبكنّ ، أنّكنّ نسوة صالحات .

ولا يكن لكنّ دفتر محاسبات بينكنّ وبين الرجال . فما ظهرت امرأة صالحة على الأرض إلاّ أصلحت رجالاً

كثيرين . ولا مشى رجل طاهر تحت السماء إلاّ طهّر نسوة كثيرات .

واذكرنَ أنّه ما دامت البشريّة على هذه الأرض فستبقى المرأة رحمها الخصبة ، وثديها الفيّاض ، وحضنها الرحب ، وساعدها الحنون ، وقلبها النابض في قلب الله .

الموتُ والحيـاة

في أوائل آذار سنة ١٩٣٤ انهارت بناية « كوكب الشرق » في بيروت فقضت على أربعين من الذين اتفق وجودهم فيها . وبعد أيام أعلن « النادي الماروني » في بيروت عزمه على إقامة حفلة تذكارية لضحايا الحادث وضرب لها ميعاداً في ١٥ نيسان . لكن الحكومة منعتها قبل ميعادها بيوم . وهذه الخطبة أعدت لتلقى فيها .

عندما كتب إليّ رئيس النادي الماروني يدعوني لإلقاء كلمة في هذا الاجتماع استهلّ دعوته بقوله : « بيروت المفجوعة بأربعين من أبنائها تقيم لهم مناحة كبرى . » وإذ أن التقاليد الاجتماعية تقضي على من يقبل دعوة أن يتقيّد بمشيئة الداعي ، كان من الواجب عليّ أن آتيكم وعلى قلبي عصبة سوداء . وفي عينيّ فيض من الدموع . وبين شفتيّ ندبة أولها « واحسرتاه » وآخرها « واحرّ قلباه » .

غير أني ما جئتكم لأنوح . فهل يغفر لي النادي — وهل

تغفرون لي — هذا الاعتداء الفاضح على التقاليد ؟ فأنا ، وإن نُحْت في حياتي على أمور كثيرة ، ما نحت يوماً — ولن أنوح — على الله . وعندي أن من ينوح على ميت إنما ينوح على الله .

ومتى كان الله في حاجة إلى نوحكم ونوحي ؟ أوَليس الله حيّاً من الأزل وإلى الأبد ؟ إذن كلّ ما ينبثق منه يحيا بحياته مهما تبدّلت أحواله وكيفما تغيرت أشكاله .

والذي يقول إن الأموات قد بادوا واندثروا إنما يقول إن الله الذي كان وما يزال حيّاً فيهم قد باد واندثر . والذي يؤمن بأن الموت ربّ الحياة أحرِ به أن يعبد الموت ويكفر بالحياة . والذي يبصر في الموت نهاية الحياة إنما هو ضرير لا يبصر الحياة ولا الموت .

ما هو العمر ؟ — لمحة من طرف الزمان الذي لا نعرف له بداية ولا نهاية . فهي مثل الزمان — لا بداية لها ولا نهاية . لكننا قد سلخناها عن الزمان وجعلنا منها سِفراً مستقلاً في ذاته . وجعلنا لذلك السِّفر فاتحة وخاتمة . أما الفاتحة فالولادة . وأما الخاتمة فالموت . ونسينا أن قبل تلك الفاتحة فاتحات ، وبعد تلك الخاتمة خاتمات . ففاتحة كل أمر خاتمة لأمر سواه . وخاتمة كلّ أمر فاتحة لأمر غيره . وفاتحة الفاتحات وخاتمة الخاتمات لا تتميزان بشيء في دائرة الزمان التي لا تُحدّ .

فما بالنا ، ونحن الذين حصرنا الزمان بين المهد واللحد،

نُقبل على المهد ونهرب من اللحد ، وما المهد إلا طريق اللحد وبابه ؟

ما بالنا نلثم اليد التي كتبت الفاتحة ونعض اليد التي خطّت الخاتمة ، واليد التي خطّت الخاتمة هي عين اليد التي كتبت الفاتحة ؟

إنْ تكن خاتمة العمر شرّاً فالفاتحة التي تؤدي إليها شرّ مثلها . وإذ ذاك أجدر بنا أن ننوح على من يولد قبل أن ننوح على من يموت .

أو تكن الفاتحة خيراً فالخاتمة الناتجة عنها خير مثلها . وعندئذ علينا أن نغتبط بالموت اغتباطنا بالحياة .

أترونني أكلمكم بالأحاجي ؟ وبماذا عساني أكلمكم إن لم يكن بالأحاجي ، وتقاليد الناس قد جعلت من وجودهم سلسلة كلّ حلقة فيها أحجية ؟ أجل إنها لأحجية أن تفصل بين الحياة والموت وهما متصلان اتّصال النهار بالليل ، واليقظة بالمنام ، والزهرة بالثمرة ، وقطرة الطلّ بقطعة الجليد .

إنها لأحجية أن تُميت نبات الأرض وطيرها وحيوانها لتحوّلها لحماً في جسدك ودماً وعظماً . وأن تدعوَ موتها حياة . وعندما تحوّل الأرض جسدك نباتاً وطيراً وحيواناً أن تدعو ذلك موتاً لا حياة .

إنها لأحجية أن تأكل الموت في كل ما تأكل . وتشربه

في كلّ ما تشرب . وتلبسه في كل ما تلبس . وأن تنام وتقوم وإياهُ . وأن تشتهيه في كلّ شهوة من شهواتك . وأن تباركه في كلّ ذلك باسم الحياة . ومن ثَمّ أن تلعنه عندما يأكلك ويشربك ويلبسك ويشتهيك .

إنها لأحجية أن تقول إذا ما وُلد لك ولد . « لقد منّ الله عليّ بمولود . » وأن تقول إذا ما مات ولدك : « لقد ابتلاني الله بموت ولدي العزيز . » ولو أنصفت نفسك وربّك لما رأيت في ولادة ابنك أو ابنتك منّة ، ولا في موته أو موتها بليّة .

أوَلم تعطك الحياة كلّ ذاتها إذ أعطتك الحياة ؟ أوَلم تودِع فيك كلّ أسرارها ، وكل هيبتها ، وكلّ جمالها ؟ فكيف لها أن تزيد ذرّة فوق ذاتها أو أن تُنقص ذرّة من ذاتها ؟

أوَلم تعطك الحياة السماء وكلّ ما فيها . واليابسة وكلّ ما عليها . والبحارَ وكلّ ما في أحشائها ؟

أم أنت لا تحسب شيئاً ملكك إلاّ إذا استقرّ في جيبك ، أو ضمن جدران بيتك ، أو خلف أقفال خزانتك الحديدية ، أو كان في يدك صكّ مسجّل في محكمة من محاكم الناس يشهد لك بالملكيّة ؟

إذن ضع البحر في جيبك . والشمس والقمر والنجوم في بيتك . واحبس الهواء في خزانتك الحديدية . واحصل لك على صكّ بشذا الأزهار وأغاريد الأطيار . وإن أنت قصّرت

في ذلك فما اللوم على الحياة التي أعطتك بل على يدك التي لا تسع العطية ولا تعرف كيف تتناولها .

ولو أنّك تناولتها بروحك لما كنت في حاجة إلى صكوك وخزائن من حديد . ولو أنّك تناولتها بروحك لعرفت كيف أن الحياة إذا ما اتخذتك وسيلة لتظهر في شكل إنسان مثلك لا تكون قد « منّت » عليك بذلك الإنسان ، بل تكون قد «منّت » عليه بذاتها . وما أنت إلا شاهد للعجيبة التي تمّت فيك قبل أن تتمّ في ولدك . فتفهّم العجيبة وأدّ عنها لنفسك شهادةً صادقةً . وحينئذٍ تعرف أن الولد الذي يولد بواسطتك لا يولد لك بل للحياة كلّها . فلا ولادته منّة عليك ، ولا موته قصاص لك . وحينئذ تعرف أنك للحياة مثلما الحياة لك .

ومن ثمّ فالحياة ما أعطتك جسدها بكلّ ما فيه من جمال محسوس حتى أعطتك روحها بكلّ ما فيها من روعة قدسية تفوق الحسّ والإدراك . أولم تعطك المقدرة على أن تحبّ بلا حدّ ولا قياس ولا نهاية ؟

وها أنت قد وضعت لمحبّتك حدّاً . وجعلت لها قياساً ونهاية . فتقرّبت من عشرات الناس وأقصيت عنك الملايين . وأحببت القليل من الكون وكرهت الكثير .

ها أنت تحسبني غريباً عنك لأن ليس بيني وبينك صلة رحم أو مصلحة أو جوار . بل أنت تكرهني لأن ليس بيني وبينك

صلة الموطن والجنس واللغة والدين. ألا قل لي بحقّك : هل بعد صلة الحياة من صلة ؟ أفي الحياة موطن أم جنس أم لغة أم دين أوسع من الحياة ؟

وأنت لو اقتربت مني لوجدت فيّ صلةً جديدة بينك وبين نفسك . وأنت لو أحببتني لوجدت فيّ ثروة أين منها كلّ ثروات المال والعقار .

غير أنّك أقصيتني عنك فأقصيت نفسك عن نفسك . وأبغضتني فأبغضت نفسك في نفسك . وأنت ، مع ذلك ، تلومني وتلوم الحياة . ألا لُمْ قلبك الذي ضاق دون ثروة الحياة .

ما كره الإنسان الموت إلا لأنّه لم يحسن محبّة الحياة . وما كان الموت نكبة لو لم يجعل الإنسان من حياته نكبة .

ما هي النكبة أن تنهار بناية على أربعين من الناس فتترك أجسامهم أشلاء . بل هي النكبة أن نرى في مشيئة الحياة نكبة . وأن نتعثّر في كلّ لحظة من حياتنا بأشلاء الجمال والإيمان والمحبّة فلا نرى في ذلك نكبة .

هي النكبة أن نرقص في أعراس الأرض ــ وقد تكون جنائز في السماء . وأن ننوح في جنائز الأرض ــ وقد تكون أعراساً في السماء .

هي النكبة أن نتنفس الهواء لنحيا ثم أن ننفث في الهواء

سموم أحقادنا وأحسادنا وأطماعنا لنميت ونموت .

هي النكبة أن تسقينا الأرض من عصير قلبها الطاهر فنسقيها من دماء قلوبنا الممزّقة بشفار بغضائنا وأهوائنا .

هي النكبة أن نهرب من الدنيا إلى الدين فيردّنا أولياء الدين إلى الدنيا . وأن يكون لنا من رجال الدين من يصنعون في كلّ يوم صلباناً جديدة لا ليصلبوا عليها أنفسهم بل ليصلبوا عليها أعداءهم .

هي النكبة أن تقلّد إنساناً وظيفة ليخدمك فيها ، فيصبح سيدك وتصير خادمه .

هي النكبة أن تكون صحيح العقل ، فتأتي من بيت المجانين بمن يدرّب عقلك ويثقّفه . أو أن تكون سليم الجسم فتأتي من المستشفى بعليل يداويك .

هي النكبة أن يعفّر الإنسان وجهه أمام الإنسان . أو أن يتسوّل حقّ الحياة وجمالها وحريتها من إنسان .

هي النكبة أن يكون الإنسان نكبة الإنسان .

أما نكبة النكبات فهي أن تتعلّق بخيوط واهية من ذيل ثوب الحياة ، ولك الحياة بكلّ أرواحها ، وكل أجسادها ، وكل أثوابها .

ألم أقل إني ما جئت لأنوح ؟ وكان عليّ أن أقول كذلك إني ما جئت لأهلّل . فما التهليل إلا قرار النوح البعيد .

إنما جئت لأشهد أمامكم وأمام نفسي أن القدرة التي تحييني وتحييكم وتحييي كل شيء هي أبداً هي . لا زيادة ولا نقصان . وذلك لأنها تنفق ذاتها بدون حساب . فمن حاول أن يحاسبها في ما تعطيه وتأخذ منه خسرها . ومن أعطاها كل ما له بغير حساب مثلما تعطيه بغير حساب ربحها . من استأثر بها أضاعها ومن أنفقها وجدها .

أوَلا ترون إلى النهر الذي يُفرغ ذاته في البحر كيف يعود البحر فيترعه من جديد ؟ أم لا ترون إلى البِرْكة التي تحاول أن تستأثر بهبة البحر كيف تمسي آسنة قذرة ؟

ونحن لن نتغلّب على ما فينا من أسن الموت وقذارته حتّى نتعلم كيف نحب الحياة .

ونحن لن نتعلم كيف نحب الحياة حتّى نتعلم كيف ننفقها بلا حساب وبلا أمل بأيما ثواب .

ونحن لن ننفقها بلا حساب وبلا أمل بأيما ثواب حتّى نمزق كل ما في أيدينا من صكوك زائفة تشهد لنا بالملك في هذا البعض منها أو ذاك . وندرك أن جسدها الكامل جسدنا — وهو لا يتقسم . وروحها الشامل روحنا — وهو لا يتجزأ .

وإذ ذاك ليس في العالم من نكبات ومنكوبين . بل أخوّة بلا حدّ . وأبوّة بلا قياس . وأمومة بلا نهاية .

دستور الطبيعة

ألقيت في حفلة الشهادات لمدرستي الذكور والإناث الأميركيتين في طرابلس ، حزيران سنة ١٩٣٤ .

قلّما جاءتني دعوة للخطابة في هذه الديار المباركة إلا كان فيها تحذير لطيف من التصدي لأمرين — السياسة والدين . فكأني بالسياسة التي أصبحت ديناً في هذه البلاد ، وبالدين الذي أصبح سياسة ، يعتقدان أنهما قد بلغا من العصمة والكمال حدّاً ما بعده حد . فهما لا يرغبان في زيادة ولا يرضيان بنقصان . لذلك إذا ما تجاسر خطيب أو كاتب أو صحيفة على إبداء أقلّ الشك في هاتيك العصمة وذيّاك الكمال عاقباهم بالنفي أو بالسجن أو بالتعطيل . وذلك شأن العصمة والكمال في كلّ مكان وزمان !

ألا فليطمئن بال السياسة وبال الدين — فليطمئن من نحوي في الأقلّ . فأنا لو كان في يدي قذيفة أستطيع أن أدمر بها حكومة وأشيد حكومة لما كلّفت يدي عناء قذفها . لأني أربأ

بيدي عن محو كلمة في الماء وكتابة كلمة سواها . وإن لم يكن لها عمل تعمله أفضل من الكتابة على الماء فإني أؤثر أن تبقى جامدة أو أن تذرّي الرمل على شاطىء البحر .

وأنا لو كان على طرف لساني كلمة تمكنني من محق مذهب ديني وخلق آخر لما سمتُ لساني تعب التلفّظ بها . لأني أربأ بلساني عن أن يسلب كسيحاً عكازه أو أن يعطي أعمى نظارتين . وإن لم يكن له ما يقوله غير تلك الكلمة فخيرٌ له لو كان أبكم أو لو راح يردّد كل حياته : « يا جمل يا بوبعه . »

ومن ثمّ فأنا أضنّ بوقتكم ووقتي أصرفهُ سُدًى في التفضيل بين عكاكيز الناس وما يكتبون بها على الماء . ولو جئت لأفعل ذلك لخجلت من نفسي إن أنا لم أخجل منكم . وإن لم أخجل من نفسي لخجلت من هذا الهواء الذي أتنشقه يحمل ما أقول إلى البحر جاركم وإلى الجبل جاري .

وجاري — ويا ليتكم تعرفونه — جار كريم حليم . ما مشيت يوماً على ترابه ، أو جلست على صخوره ، أو أكلت من ثماره وبقوله وسمعتهُ يسألني : — من أنت ؟ وما سياستك ؟ وما مذهبك ؟

يجول في جوّه النّسر والخفّاش فيمدّ بساطه للاثنين على السواء . يتسلقه الغني فلا ينحني أمامه قائلاً : أهلاً وسهلاً . والفقير فلا يعبس في وجهه وينتهره : اغرب عني . وتشرب

من ينابيعه العنزة الصحيحة والجرباء . فلا يسقي الأولى ماء زلالاً والثانية ماء عكراً . ولقد سألته مرة : مُلْكُ من أنت ؟ فلم أسمع جواباً سوى قهقهة الرياح في الأودية البعيدة . فضحكت من نفسي مع الرياح الضاحكة .

وجاركم ، وهل تعرفونه ؟ — جار كريم حليم : منذ فجر الخليقة والدهور تمخر عبابه . فما غصّ يوماً بأحشادها ، ولا أنّ مرة من أثقالها ، ولا أبه يوماً لسياساتها وأديانها . يحمل تبر الناس مثلما يحمل ترابهم ، وسلاطينهم كعبيدهم ، وغزاتهم كمغزوّيهم ، وأحياءهم كأمواتهم . يستحمّ فيه صالحهم وطالحهم ، وملحدهم ومؤمنهم ، وسليمهم وعليلهم ، فلا يتدنّس ولا يعتلّ ولا يكفر . ويأكل من راحتيه الإنسان والحيوان بلا فرق ولا حساب ، فلا يزيد ولا ينقص . ألا سلوه عن سياسته ما هي ، وعن مذهبه ما هو ؟

وجاركم وجاري تربطهما صلة أين منها صلة الشقيق بالشقيق والحبيب بالحبيب . فكم مرة رأيت بحركم المائع الذي لا يهجع يتسلّق جبلي الجامد الهاجع ليتعلّم منه سرّ الجمود وليهجع في أحضانه طوال فصل الشتاء . وكم مرة رأيت جبلي الهاجع الجامد يميع في الربيع فينحدر جذلاً مهللاً إلى بحركم ليسيل وإياه شراباً للغمام وحياةً للأرض .

هي الطبيعة — وأنا وأنتم منها — أدعوكم إلى تفهّم سياستها

واكتناه دستورها . فالقدرة التي تسوسها تسوسكم . وسياستها لا تتغير ولا تتبدّل ، فما أبعدها عن سياسات الناس ! والدستور الذي تتمشى عليه تتمشون عليه . وهو لا يتحوّر فيه حرف ولا تتحوّل منه نقطة . فما أبعده عن دساتير الناس !

هي الطبيعة أدعوكم إليها . ولكن يا ويل من يقترب منها بعينه دون قلبه . فهو يبقى بعيداً عنها وإن كان منها . ويا ويل من يُقبل عليها وهو يحسبه سيدها . فهو يقضي حياته عبداً لها من حيث لا يعلم .

لا تركنوا إلى العلم وحده لأنّه لا يعلم . وهو لا يعلم لأنّه يركن في دروسه إلى الحواسّ التي مهما اتّسع نطاقها لا يسع الكون . فإذا ما قرأتم عن سنّة النشوء وتنازع البقاء وبقاء الأنسب فاعلموا أنّها سنّة في الكتب لا غير . وأن الطبيعة ليس فيها مناسب وأنسب . فصنف من أصناف النبات ، أو فصيلة من فصائل الحيوان ، أو جنس من أجناس البشر انقرضت منذ أجيال لأسباب يجهلها العلم قد تعود بعد أجيال لأسباب لا يحلم بها العلم . والطبيعة لا تخلق لتُبيد ، ولا تكتب لتمحو ، ولا تخطىء ثم تعود فتصحح خطأها . ومن ذا بإمكانه أن يجزم بأن الطبيعة أخطأت هنا أو هناك ؟

ثم لا تركنوا إلى ما ورثتموه واكتسبتموه من أوهام الناس وخرافاتهم القائلة بأن الإنسان سيّد الطبيعة . فلو كان

الإنسان كذلك لكان كلّ ما في الطبيعة رهن إرادته وطوع بنانه . وها هو تدفئه الشمس — وتحرقه . ويرويه البحر — ويغرقه . ويغذيه التراب — ويأكله .

ها هو تحاربه البرغشة في فراشه . وتسابقه النملة إلى بيدره . والفأرة إلى معجنه . والمكروبات التي لا تُبصَر تفتك فيه ليل نهار . إذن ليس الإنسان بالسيد الذي يتوهم . إن هو في الطبيعة إلاّ شريك مساوٍ لكلّ ما في الطبيعة . يأخذ على قدر ما يعطي . ويعطي على قدر ما يأخذ .

ثم لا تقتربوا من الطبيعة بميزان النفع والضرر ، والخير والشر ، والجمال والشناعة . فلو كان لكم أن تبصروا كل ما كان وما سيكون لأدركتم أن ما هو كائن أنفع وأصلح وأجمل ما يمكن أن يكون . وإذ ذاك لما حاولتم أن تخلقوا في الطبيعة درجات ومراتب ، فتجعلوا النحلة أنفع من النملة ، والثمرة أصلح من الحطبة ، والبلبل أجمل من الغراب .

لو فكرتم بأن الطبيعة ما كانت كما هي لو لم يكن أقلّ ما فيها كما هو ؛ وبأن العناصر الأربعة لا تجهد ذاتها في تكوين زنبقة أكثر ممّا تجهد ذاتها في تكوين شوكة ؛ وأن القوة المبدعة لو كانت تؤثر البلبل على الغراب لما خلقت يوماً غراباً — أقول لو فكرتم بذلك لطرحتم ميزان النفع والضرر ، والخير والشر ، والجمال والشناعة في بحركم الواسع الأحشاء والطويل الأناة .

ها أنا أكلمكم وأنتم تسمعون . ولست أشكّ في أنكم ترون كل الفضل بجانبي . غير أني أقول لكم إن فضل الأذن على اللسان كفضل اللسان على الأذن . وحقّ الحطبة على الثمرة كحق الثمرة على الحطبة ! ربّ ثمرة كان لكم فيها الموت ، وحطبة كانت لكم منها الحياة .

إن لم يكن لكم بدّ من ميزان تزنون فيه الطبيعة والناس ، فها أنا أعطيكم ميزاناً جديداً . ميزان الحطبة والثمرة . فأنتم لو وزنتم الناس في مثل هذا الميزان لوجدتم أن الواحد يعادل الكلّ والكلّ يعادل الواحد . وأنتم لو وزنتم الطبيعة العجماء في مثل هذا الميزان لما رجح التبر على التّراب ، ولا البلبل على الغراب . أما في غير هذا الميزان فلا يستقيم لها وزن ولا تستقرّون معها على حال . فهي صديقتكم حين تحسبونها عدوّتكم . وعدوّتكم حين تركنون إليها كصديقتكم . وهي صالحة وطالحة . وأنتم تصرفون العمر تفرزون صالحها عن طالحها فتنتهون أبداً حيث تبتدئون .

لكنكم حالما تقتربون من الطبيعة بقلوبكم ، وكأنداد لا كأسياد ، وبميزان تستوي فيه الحطبة والثمرة ، تجدونها ألصق بكم من ظلالكم ، وأحنّ عليكم من أمهاتكم ، وأقرب لأرواحكم من أجسادكم ، وأصلح من صلاحكم بما لا يقاس، وأجمل من جمالكم بما لا يُحدّ . وتجدون أن كل ما

فيها من الأشكال والألوان التي لا يحصيها علم ولا يستوعبها عقل ليس إلا جسداً واحداً لروح واحد — هو الله .

ولعلّكم إذ ذاك لو سألتم الطبيعة عن دستور حياتها وحياتكم السرمدي لما بخلت عليكم بالجواب ، ولكان جوابها كلمة واحدة : الطاعة . ولو سألتموها عن مصدر تلك الطاعة لأجابتكم : المحبة .

ولعلكم تدركون عندئذ أن ينبوع كلّ عصيان هو البغض . أفلا ترون أن كل ما في الطبيعة — من الغازات ، إلى السوائل ، إلى الجماد ، إلى النبات ، إلى الحيوان ، إلى الإنسان — أقله شقاءً هو أوفره محبّة أو ألفةً وأكثره طاعةً أو امتثالاً ؟ وأكثره شقاءً أقلّه محبة وأشده عصياناً ؟

تقولون لي: إذن خيرٌ للإنسان أن يعود القهقرى بدلاً من أن يسير إلى الأمام . وأنا أقول لكم أن لا « خلف » ولا « أمام » في الله ، بل نحن فيه كيفما سرنا وأنّى انقلبنا ؛ إلا أنّنا سلكنا سبيل العصيان ، فلا رجوع منه إلا بالطّاعة .

والطاعة نوعان : عمياء ومبصرة . أما العمياء فطاعة لا تعرف الغرض من ذاتها . هي طاعة الريح والصخر وقطرة الماء . وأما المبصرة فطاعة تعرف أن دستور الحياة هو المحبة . وأن ناموس المحبة هو الامتثال . هي طاعة الله لناموس ألوهيته ، وهي الطاعة التي أدركها رسل العالم وأنبياؤه ، والطاعة التي لا

مناص لنا منها إذا ما شئنا أن نجد لنا مناصاً من العذاب المؤدي إلى الموت والموت المؤدي إلى العذاب .

أما وقد بلغت بكم هذا الحدّ فإني أخشى عليكم ــ لا سيما على هؤلاء الفتيان والفتيات الذين يغادرون اليوم جدران هذا المعهد ــ طاعة تكون شرّاً من العصيان . وهي طاعة العصيان ذاته : طاعة ما استعصى من شهوات القلب ، وما تمرّد من مطامع الفكر ، وما تنافر من منازع النفس . طاعة الناس في ظلمهم ، وفي كفرهم، وفي ما تحرّمه أوهامهم وتحلله أهواؤهم .

إن طاعة كهذه الطاعة لبعيدة كلّ البعد عن الامتثال الذي أدعوكم إليه باسم المحبة . والمحبة التي أكلمكم عنها هي الألفة التي تربط كلّ ما في الكون .

لا يدنو الفساد من شيء إلاّ متى حلّ بين أجزائه تنافُر . فأجسادنا ما كانت لتنحلّ لولا عناصر متنافرة تفكّك ما فيها من روابط المحبة . وهذه العناصر ما كانت لتدخل أجسادنا لولا أفكار فينا وشهوات قلقة تشقّ عصا الطاعة على المحبة .

هذه « رؤوس أقلام » أسوقها إليكم ، وهل كل ما نقوله ونكتبه ونفعله إلاّ رؤوس أقلام ؟ والآن لو سألتموني : ما الذي أتمنّاه لكم قبل كلّ شيء وبعد كلّ شيء ؟ لأجبتكم :

محبّة تفهم فتطيع

وطاعة تبصر فتحب

الكونُ كامِلٌ لِلكامِلينَ

أعدت للإلقاء في حفلة جمعية « الإصلاح » في
أميون — الكورة في لبنان ، تموز سنة ١٩٣٤ .

الناس تجمعهم كلمة وتفرّقهم كلمة .

وأنتم قد جمعتكم كلمة هي « الإصلاح » . أما الكلمات التي تفرّقكم فالله أدرى بها .

والإصلاح كلمة رنّانة ، خلاّبة ، برّاقة كالزئبق. ولكنها كالزئبق قلقة ورجراجة . حتى إنها بين تمددها وتقلصها تكاد لا تستقرّ على حال . فهي طويلة إن شئتموها طويلة . وقصيرة إن شئتموها قصيرة . بل هي كلّ شيء ولا شيء .

هي كلّ شيء إذا ما قصدتم بها إصلاح أنفسكم . وهي لا شيء إذا ما قصدتم بها إصلاح العالم . فأنتم عندما تقيمون من أنفسكم مصلحين لأنفسكم تشهدون بذلك أن العالم الذي هو صنع الإله الكامل كامل . وإنكم إمّا أبصرتموه ناقصاً في جهة من جهاته أو معوجّاً في حالة من حالاته ، فلنقص في معارفكم ولحسورٍ في أبصاركم . وشهادتكم إذ ذاك صادقة ولكم فيها زاء جميل . وسعيكم إذ ذاك في توسيع معارفكم سعيٌ

حميد . وجهدكم في تنقية أبصاركم جهد مثمر . ومتى انجلت أبصاركم كان كلّ شيء فيها جليّاً ، ومتى اكتملت معارفكم كان عالمكم كاملاً .

لكنكم حالما تقيمون من أنفسكم مصلحين للعالم تشهدون بأن العالم ناقص وأنكم كاملون . ومعنى تلك الشهادة أن الله الذي هو مصدر العالم ومصدركم ناقص . وأنكم تعملون على إصلاحه وتكميله . وشهادتكم إذ ذاك كاذبة ولكم فيها عذابٌ أليم . وسعيكم إذ ذاك في تقويم العالم سعيٌ خاسر . وجهدكم في تكميله جهدٌ عقيم . وما دمتم كذلك دام عالمكم ناقصاً وكنتم بعيدين عن الصراط القويم .

فتشوا أفكار الناس . فتشوا أحلامهم . فتشوا أقوالهم . فتشوا أعمالهم تجدوهم ينحرون أعمارهم لإصلاح ما ليس من شأنهم ، ولا في مستطاعهم إصلاحه . فهم في نزاع دائم بعضهم مع بعض ، ومع الطبيعة ، ومع خالق الطبيعة . وحيثما رأيتم نزاعاً ، مهما يكن ظاهره ، فاعلموا أن باطنة واحد ، وهو قصد كلا المتنازعين أن « يصلح » خصمه كيما يجعله يرى الحياة بعينيه ، ويسمعها بأذنيه ، ويتلمسها بيديه ، ويشتمّها بأنفه ، ويتذوّقها بلسانه .

فما الولد يخاصم والده في أمر من الأمور إلا مصلح يريد أن يصحّح ما اختلّ في والده . وما الوالد يقاتل

ولده إلاّ مصلح يرمي إلى تقويم ما اعوجّ في ولده . ومثلهما جار يقاتل جاره ، وقبيلة تغزو قبيلة ، ودولة تجتاح دولة ، ودين يصارع ديناً .

ما مدّ سارقٌ يده إلى جيب غيره لينقل ما فيه إلى جيبه إلاّ لاعتقاده أن الحياة لم تعدل في توزيع خيراتها . فهو بالسرقة يعلّمها العدل .

ولا قتل إنسان إنساناً إلا كان قتله تصريحاً منه بأن الله قد أخطأ عندما خلق ذلك الإنسان . فهو بقتله يصحح خطأ الله .

ولا اشتهى جار امرأة جاره أو أمتَه أو ثوره أو حماره إلا لأنّه رأى ذاته أحقّ من جاره بامرأته وأمَته وثوره وحماره . فهو بشهوته يردّ الحقّ إلى نصابه ويهدي النظام الأعلى إليه .

لعلّ أشدّ الناس ولعاً بإصلاح الناس هم النمّامون والمغتابون . وأيّ الناس لا ينمّ على الناس ويغتابهم ؟ وهل النميمة والاغتياب إلا ضربٌ من منازعة الله في ملكه وتدريبه على تدريب خلقه ؟ أليس أن من يقول في جاره : هو كيت وكيت ، وكان من الواجب أن يكون هكذا وكذا ، يقول بذلك لربّه : لقد خلقت جاري على هذه الصورة أو تلك ، وكان من الواجب عليك أن تخلقه على تلك وهاتيك .

وكثيراً ما أسمع الناس يتحدّثون عن الناس فيدمع قلبي في داخلي على ألسنة يرهقها الكلام الباطل ، ويرهقها الصمت

الجميل والكلام النبيل . وكثيراً ما أقرأ كتابات الناس في الناس وللناس فأهمّ بتكسير قلمي وتحطيم دواتي .

إن يكن ذلك شأن الناس مع الناس ، فشأنهم مع الطبيعة ليس أقلّ منه غرابة . فأنتم لا تسمعون إنساناً يتأمّل الطبيعة ويهتف من أعماق قلبه مع داود النبيّ : « عجيبة هي أعمالك يا ربي ، كلها بحكمة صنعت » حتى تسمعوا ألفاً يؤنّبون ربّ الطبيعة لأنّه لم يصنعها بحكمة تضاهي حكمتهم . فهم والطبيعة أبداً في نزاع . ولو أن الذين يعيبون على الله بعض أعماله في الطبيعة اتفقوا يوماً على رأي واحد لهان الأمر . إلا أنهم ما اتفقوا ولن يتفقوا . فالذي يستحسنه الواحد يستقبحه الآخر . والذي يراه البعض صالحاً يراه سواه طالحاً .

منذ وُجد الناس على الأرض وبعضهم يعمل بغير انقطاع على إصلاح البعض الآخر . وكلهم يعمل على إصلاح الطبيعة . أفما آن الأوان لجهودهم الإصلاحية أن تأتي بثمر ؟ إن مثل تلك الجهود العظيمة لو كانت صالحة المصدر ، سديدة الهدف ، لكان من شأنها أن تجعل الإنسان ملاكاً والأرض سماء . فما بال الإنسان لا يبرح إنساناً والأرض أرضاً ؟

ما بال الإنسان لا تزال لياليه تتضرّج بدماء أيامه ، وآماله تختنق بحبال أعماله ، وأحلامه تُشوى بنيران آلامه ؟

ما باله لا يأكل حتى يؤكل ، ولا يصعد حتى يهبط ،

ولا يعدو حتى يعثر ؟

ما باله يزرع الراحة فيحصد العناء ، ويغرس العلم فيجني الجهل ، ويبني مساكن للسلم فتحتلها الحرب ؟

ذاك لأنّه أبداً يهتمّ بلحية جاره أكثر من اهتمامه بلحيته؛ فتثقل عليه لحيته وتضنكه لحية جاره . لأنّه أبداً يحاول أن يصلح قريبه قبل أن يصلح نفسه . فلا تستقيم حاله مع قريبه ولا حال قريبه معه . ولو أنه حمل لحيته وترك جاره يحمل لحيته لخفّت عليه لحيته ، ولما أضنكته لحية جاره . ولو أنه أصلح نفسه قبل أن يحاول إصلاح قريبه لاستقامت حاله مع قريبه وحال قريبه معه .

وكيف للإنسان أن يصلح نفسه ؟

عليه قبل كلّ شيء أن يقرّ بجهله . فالإقرار بالجهل هو أولى درجات المعرفة . فالذي ينظر إلى الوردة بأشواكها ويقول إنّه لا يعلم القصد من أشواكها ، لكنه يتمنى لو يعلم ، لأقرب إلى المعرفة من الذي ينكر على الوردة أشواكها ويحتّم بفكره أن مبدعها قد أساء إبداعها عندما سلّحها بالشوك .

والذي يتحمّل قرصة البرغوث ويقول في قلبه : يا ليتني أعرف القصد من وجود البرغوث ، لأصلحُ إناء للمعرفة من الذي يقاتل القدرة التي أوجدت البرغوث مدعياً أنها غشيمة وعمياء وقاسية .

والذي يزرع حقله قمحاً فيبارك حتّى الفأرة والنملة والعصفور عندما تشاركه في حصاده لأحقّ بغلّة السماء والأرض من الذي يتبرّم من الأرض والسماء لأنهما أوجدتا العصفور والنملة والفأرة لتشاركه في غلّته .

إن عقلاً ليس يقبل الحياة إلا حلقات مفككة ، ولا يفتأ « يصلح » هذه الحلقة منها وينبذ تلك ، لعقلٌ مظلم . وهو يفسد حيث يريد أن يصلح . فاحذروه حتّى وإن دان له المنطق ، وجاءته البلاغة صاغرة ، وكانت كلّ خليّة من خلايا دماغه وكراً لعلمٍ من علوم الناس . لأن الحياة ما كانت يوماً ــ ولن تكون ــ حلقات مفككة بل سلسلة مترابطة الحلقات . فمَن قَبِل منها حلقةً واحدة قَبِلها كلها . ومن نبذ منها حلقة واحدة نبذها كلها . ههنا مصدر كل غبطة . ههنا ينبوع كل شقاء .

لكنّ قلباً يقبل الحياة بكلياتها لا بجزئيّاتها لقلب نيّر وإن كان يجهل المنطق ، حتّى وجدول الضرب والهجاء . وحيثما عثرتم عليه فاستنيروا بنوره . لأن نوره حقّ ، وحقّه نور . وهو يهديكم إلى المعرفة . وهو يصلحكم لا لأنّه يفحمكم بالحجّة ، بل لأنّه صالح . وهو يقوّمكم لا بحدّ سيفه ، بل بجميل إيمانه .

إذن فالإصلاح الذي أكلّمكم عنه هو أن يجعل الإنسان نفسه صالحة لاقتبال الحياة كما هي . لا أن يهدم فيها أو يشيد .

ولا أن يقوّم أو يسدّد . ولا أن يغيّر أو يبدّل . إذ ليس في استطاعة إنسان أن « يغيّر » شيئاً في الكون . ولو كان في استطاعته أن يغيّر شيئاً لما كان على ثقة من أن ما غيّره خيرٌ من الذي كان قبل أن يغيّره .

ولن تكون له مثل تلك الثقة حتّى تكون له المعرفة الكاملة بكل ما في الكون من صلات وروابط خفيّة — أعني حتّى يصبح إلهاً كاملاً واقفاً على كلّ أسرار الحياة والموت .

أترون أني فيما أنا قائل لكم أنهاكم عن العمل في سبيل المعيشة ، عن الجد وراء حاجات الجسد ، عن السعي خلف ما تقدّرونه خيراً لكم ، عن تأليف الجمعيات للوصول إلى غايات تحسبونها نبيلة وجميلة ؟ كلاّ ثمّ كلا . فكما أن العنزة لا بدّ لها من تمهيد المكان الذي تقيل أو تبيت فيه ، كذلك لا بد للإنسان من ترتيب معيشته على الأرض . لكنني أحذركم من الانخداع بأنّكم « تُصلحون » الكون أو بعض الكون في ما تفعلون .

فالكون كامل للكاملين . والحياة صالحة للصالحين .

سلام الله وسلام الناس

ألقيت في جمعية الشبان المسيحية في القدس
ليلة السادس والعشرين من آذار سنة ١٩٣٥ .

لست غريباً في أورشليم ، وإن كنت لم أطأ أديمها قبل اليوم . فما أنا غير واحد من ملايين الناس الذين حجّوا ويحجّون إليها بالقلب والفكر والخيال . حتى كأني سكنتُها أكثر من ساكنيها ، وكنت أشدّ تلاصقاً بها من بنيها . بل كأنني أنا وضعت أول حجر في أسسها ، ثم تربعت وإيّاها على صدور الأجيال منذ ذلك العهد السحيق حتى يومنا هذا . فتمنطقتُ بجبروتها ، وتعفرت بانخذالها ، وتردّيت برفيرها ، وتسترت بأسمالها ، وشربت من ينابيع طهرها ومن مستنقعات عهرها . وكأني نفخت في مزمار داودها ودرست الحكمة على سليمانها . وكأني نطقت بأفواه أنبيائها ثم كنت أول من رفعوا حجراً ليرجموا به أنبياءها . كأني بيلاطس وقيافا في آن واحد . وكأني الذي نجّر الصليب والذي مات على الصليب .

في مشارق الأرض ومغاربها مدن كثيرة ، بينها ما يقدّسه الناس تقديسهم لهذه المدينة . لكنّ ما يسحرني من أورشليم

ليس قداستها . فما هي أقدس من سواها . إن يكن ترابها تقدّس بأرجل الأنبياء والشهداء الذين مشوا عليه فالأرض كلها مقدسة لأنها « موطىء قدميّ » العلي الذي تنبأ الأنبياء بروحه واستشهد الشهداء باسمه . وإن يكن حجر في معبد من معابدها أو مدفن من مدافنها مقدساً فصخر هاجع في أعماق البحر ليس أقلّ قداسة .

كل ما في السماء وعلى الأرض مقدس لأنّه فيضان من الروح الشامل القدوس .

لا . ما سحرتني أورشليم يوماً بقداستها . لكنها سحرتني كمحيط زاخر تتلاقى وتتصارع فيه غمرات الحياة البشرية بكل ألوانها وأشكالها وأصواتها . حتّى إني لأتهيب الوقوف خطيباً في مثل هذا الخضم الذي كلّ ما فيه يخطب بغير انقطاع .

هنا كل حفنة تراب في كل مقبرة تخطب — وما أفصحها !

هنا كل حجر في كل حائط يخطب — وما أبلغه !

هنا كل لمحة من الزمان تلقي مواعظ كلّ الزمان .

هنا كلّ نسمة من الهواء تبوح بكل ما في صدور الناس من أسرار .

ولكن قلّت الآذان التي تسمع ، والقلوب التي تعي ، والأرواح التي تُصفّي ما تسمعه الأذن ويعيه القلب فلا تحتفظ منه إلا بالخلاصة التي لا تحول ولا تزول .

هنا يستحيل على أي إنسان أن يشتهي شهوة ، أو يفكر فكراً ، أو يحلم حلماً إلا كان لشهوته وفكره وحلمه إخوان وأخوات بغير عدّ .

هنا حيثما سالت قطرةُ دم بريء تسرّبت إلى بحر من الدماء البريئة . وأنّى تغلغلت عينٌ فاسقةٌ وقعت على الملايين من العيون الفاسقة . وكيفما درج قلب كؤود واكبته جماهير لا تحصى من القلوب الكؤودة . وكلما ارتفعت صلاةٌ بارّة تلاقت بصلوات بارّة ، أو جمح خيالٌ إلى ملكوت الخيال الأسمى لم يعدم رفاقاً في الطريق .

هنا موطن لكلّ أصناف البشر . فلا اللّص غريب ، ولا القاتل ، ولا شاهد الزور ، ولا عامل الخير ، ولا الطامح إلى الحقّ ، لا ولا النبيّ بغير رفاق .

هنا ، في « أورو — ساليم » — في مدينة السلام — ليس من غريب إلا السلام !

لا همّ لي أن أعرف من شاد هذه المدينة — ومتى . بل يكفيني ويكفيكم معرفة أن الإنسان وضع أسسها ، ورفع أسوارها ، وأسماها « مدينة السلام » ليجعلها حصناً للسلام . لكنه ما سكنها حتى فرّ سلامه شريداً طريداً من وجه النزاع الذي احتلّ أبراجها ، وتوّج ذاته سلطانها ، وبثّ عيونه في كلّ بيت من بيوتها ، وأقام حرّاسه على كلّ باب من أبوابها .

وما تاريخها منذ تأسيسها حتى الساعة سوى ندبة للسلام ومناحة عليه . وإذا ما قلت تاريخ أورشليم فكأني قلت تاريخ العالم — عالم الإنسان .

منذ كان الإنسان وهو لا ينفكّ يبني معاقل للسلام فلا تلبث أن تتحوّل معاقل للخصام . ويرفع مذابح للوفاق فلا يقدّم عليها من ذبيحة إلا الوفاق . ويشتاق الألفة فلا يعانق غير النفار . ويحنّ إلى الطمأنينة فلا يهتدي إلا إلى القلق .

أوتعرفون لماذا ؟ — لأن السلام الذي يطلبه هو عدوّ السلام .

هو سلام بين بطنٍ طاوٍ ورغيف من الخبز . والرغيف لم يُخلق إلا لأجل البطن الطاوي . فما كان بينهما يوماً خصام ولن يكون . إنما الخصام هو إمساكك الرغيف عن البطن الطاوي .

هو سلام بين فترٍ من الأرض وفترٍ يحاذيه . وفتران من التراب ما تنازعا يوماً ولن يتنازعا . أما محاولة الإنسان أن يوجد بينهما سلاماً فهي النزاع بعينه .

هو سلام بين موجتين في البحر . وأمواج البحر المتلاصقة المتمازجة ما اقتتلت يوماً ولن تقتتل . أما تقييدها « بالسلام » فهو مصدر القتال .

هو سلام بين عبد وحريته . والحرية التي هي هبة الله لكل أبناء الله ما ميزت يوماً ولن تميز بين سيد وعبد . أما ادعاء

الإنسان بأن في قدرته أن يزوّج الحرية من العبودية لتعيشا في سلام فهو قاتل السلام .

لا . ليس السلام في شيء من ذلك . وكلّ ما تسمعونه أو تقرأونه عن مساعي الممالك وساستها في سبيل السلام ليس أكثر من زيادة بلّة في طين . لأنهم يحاولون اقتناصه بقانون يسنونه في مجلس أو ميثاق يبرمونه في مؤتمر ، ويدّعون حمايته بمدفع أو مدرعة . وما كان السلام يوماً عنقاء تُقتنص بشراك ، ولا شيخاً عاجزاً ، أو طفلاً قاصراً يحتاج إلى حماية .

ولو أن السلام يحيا في أقفاص المواثيق لما عرف العالم غير السلام . ولو أنه يعيش في أفواه المدافع وأحشاء المدرعات لما كانت المدافع ولا المدرعات . إنّه لأقلّ بلاهةً أن تأتمن هرّاً على فأرة ، أو أن تكِل حراسةَ الجنّة لإبليس من أن تأتمن مدفعاً على السلام أو تجعل مدرعةً حارسة له !

السلام الذي أحدّثكم عنه هو غير ما تعوّد الناس الكلام عنه باسم « السلام » . فهو لا يبتدىء وينتهي بقولكم بعضكم لبعض « السلام عليكم » أو « السلام لكم » . ولا هو أنْ يأكل أحدكم طعامه في طمأنينة من سارق أو عدوّ طارق . ولا أن يروح ويغدو ، ويستريح ويعمل ، ويزوج ويتزوج وهو في مأمن من رصاصة تخترق صدره أو قنبلة تنقضّ عليه من الفضاء ، فتمزّق أمعاءه . هو اتزان وائتلاف في النفس . هو

شقيق المحبة – بل هو المحبة . وهو روح كلّ روح ، وحياة كل حياة ، والقدرة التي بها يتماسك كلّ ما في الكون من محسوس وغير محسوس فلا يفلت منها شيء ولا يهلك معها شيء .

تقولون لي : « وهذا السلام أين نفتش عنه ؟ »

ألا فتشوا عنه في قلوبكم . أمّا في غير القلب فعبثاً تفتشون .

هناك ، في ذلك العالم المتناهي بحجمه ، اللامتناهي بقوته ، في تلك الرمانة المرصوفة بكل أصناف النزعات والشهوات – هناك اعقدوا مؤتمراتكم للسلم .

فإذا وفّقتم بين ما فيكم من نزعات تشدّكم إلى فوق وأخرى تجذبكم إلى أسفل ، وشهوات تسير بكم غرباً وأخرى تقودكم شرقاً ، عرفتم السلام وكنتم في سلام مع العالم ، حتى وإن كان العالم في اضطراب . وإلاّ بقيتم تجتاحكم عواصف النزاع وتتقاذفكم أمواج الخصام حتى وإن لم يكن في جوّ العالم من حواليكم ولا غيمة واحدة .

وأنتم لن توفّقوا بين ما فيكم من نزعات وشهوات متضاربة ما دمتم مقودين بحواسكم لا غير ، وما لم يكن لكم خيال يخرجكم من أصداف شخصياتكم الضيقة إلى حيث تشعرون وتعرفون أن الكون فيكم وأنتم فيه . وأنّكم لا تكتملون إلاّ بكلّ ما في الكون ، مثلما لا يكتمل شيء في الكون إلاّ بكم . وعندئذٍ إذا ما همستْ نفس أحدكم في أذنه قائلة :

« فلان عدوّي . فلأحذفه من الوجود » انتهرها قائلاً : « فلان مني وأنا منه . إن حذفته حذفت ذاتي . وكيف أحذف ذاتي بذاتي ؟ هل يستطيع الوجود أن يحذف الوجود ؟ »

وهكذا تتحول حربكم مع العالم إلى حربكم مع أنفسكم . هي حرب ضروس أين من هولها حروب الجيوش والأساطيل . لكنكم كلما ربحتم معركة من معاركها اقتربتم من السلام . والظفر حليف كل من حارب ويحارب نفسه بثبات وقوة حتى النهاية .

ما لم تعقدوا سلماً مع أنفسكم فعبثاً تطلبون السلام . إن ناسكاً في صومعة منقطعة لبعيدٌ عن السلام ما دام بعض العالم في نظره خيراً وبعضه شرّاً وما دام يرى الشرّ في العالم لا في نفسه .

من يصرع إنساناً يصرعه مرة واحدة . لكنّ من يعفّ عن قتل إنسان ويبقى يشتهي له العذاب والموت طيلة حياته فذاك يصرعه مرّات لا تحصى .

ليس يكفيكم سلاماً مع جاركم أن تصافحوهُ وتجالسوهُ وتؤاكلوهُ وتشاربوه . ولا يكفيكم سلاماً مع العالم أن لا تتعدوا على العالم بشيء ولا يتعدى عليكم بشيء . ما ذاك غير مظهر خارجي من مظاهر السلام .

أما السلام فهو أن تحبّوا جاركم والعالم لأنهما منكم وفيكم

مثلما أنتم منهما وفيهما . فحيث كانت المحبة كان السلام ، وحيث لا محبة لا سلام .

لقد يتذرع بعضكم بالطبيعة فيقول لي : « جميل هو السلام الذي تحدّثنا عنه ولكنه لا وجود له إلا في مخيلتك . ها هي الطبيعة لا تقوم إلا بالنزاع وقد جعلت ضعيفها طعاماً لقويّها .

هوذا الذئب يبطش بالحمَل ، والعنكبوت تلتهم الذبابة ، والصقر يمزّق العصفور . وها نحن لا نحيا إلا إذا أمتْنا ، ولا نسْلم إلا إذا أتلفنا . فما أبعدنا عن السلام — سلامك — وما أبعده عنا ! »

ليت من يقول هذا القول يتفحّص الطبيعة ببصيرته لا ببصره إذن لخاطب نفسه هكذا :

« الطبيعة جسد واحد يحيا بروح واحد . وأنا ما سمعتها يوماً تقول : هذا لي . وهذا ليس لي . بل كل ما فيها لها وهي لكل ما فيها . فلا مالك ولا مملوك . وهي ما جعلت الضعيف طعاماً للقوي ، إلا جعلت القوي طعاماً للضعيف . فلا ضعف فيها ولا قوة ولا محاباة ولا تمييز . وهي تستخدم كلّ قواها لتخلق البرغشة وتحييها . ولا تستخدم أكثر من قواها لتخلق العصفور وتحييه . فإما جعلت البرغشة طعاماً للعصفور فما ذاك لأنها تكره البرغشة وتحب العصفور ، بل لأن محبتها التي لا تُحدّ تأبى عليها أن تطعم ذاتها أقلّ من ذاتها . وإما جعلت

العصفور غذاء للصقر فليس لأنها تؤثر الصقر على العصفور ، بل لأنها تحبّ الاثنين بالسواء . إنها المحبة التي ما بعدها محبّة أن يقدّم المحبّ ذاته للمحبوب والمحبوبُ للمحب . فلا ينقص الواحد ويزيد الآخر بل يصبح الاثنان واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان . وذاك شأن الطبيعة في كل أعمالها ، ما ظهر منها وما استتر . فلا نزاع فيها ولا خصام . »

أنت يا من يبخل على شحّاذ بكسرة من خبز ، كيف لك أن تفهم كرم الطبيعة التي لا تبخل على دودة بإنسان ؟

أنتَ يا من لا يدين جارَه المعوزَ فلساً إلا ليستردّه فلسين ، أنّى لك أن تدرك عفّة قلب الطبيعة وسخاء روحها السموح عندما تعطيك وتعطي كل أبنائها من ذاتها وبغير حساب ؟

أنت يا من يرى نفسه سلطان الطبيعة وتاج الخليقة ، كيف لا تخجل من أن تبرّر أفكارك المظلمة بغريزة الوحش النيّرة ، أو أن تغطّي شهواتك الأثيمة بشهوات الحشرات والهوام البريئة ؟

أنت يا من له لسانٌ يهذّ بالسلام ، وقلبٌ يحنّ إلى السلام ، وخيالٌ ينفذ من خلال أغشية الحسّ إلى حيث الحياة ألفة وسلام ، كيف ترضى أن تقاس بالبرغشة فتقول أن لا ألفة في الحياة ولا سلام ؟

هب الطبيعة لا تعرف السلام ولا محرّك لها في كلّ أعمالها

غير التنازع الجنسي والسباق إلى الطعام . ألعلّ الإنسان كل الإنسان في بطنه وظهره لا غير ؟ إذن ، من أين هذا الشوق المبرّح ، هذا الحنين الجارف إلى الحقّ — إلى الجمال — إلى المحبة — إلى السلام ؛ وكلها تكاد تكون مترادفات لهدف واحد لا أثر فيه للبطن ولا للظهر ؟

من كان عالمه محصوراً في بطنه وظهره لا عتب عليه إن هو تحدّى الحيوان في شهواته وأعماله . فالروح فيه ما يزال هاجعاً هجوعه في الحيوان .

لكنّ في الناس من استيقظت أرواحهم فتذوّقوا طعاماً لا تعرفه البطون ، وعرفوا قوةً لا تستقرّ في الظهور . هؤلاء كلما شبعت أرواحهم قلّ ضجيج بطونهم . وكلما ضعفت شهواتهم اشتدّت أرواحهم . وكلما صارعوا أنفسهم ابتعدوا عن الصراع واقتربوا من السلام .

وها أنا أدعوكم إلى حرب ولا كالحروب . حرب تدور رحاها لا بينكم وبين إنسان . ولا بينكم وبين شيء . بل بين أنفسكم وأنفسكم . بين الحيوان فيكم والإنسان . حتى إذا ما تمّت الغلبة للإنسان اتسعت روحه وضاق بطنه ، وهربت من قلبه كلّ بواعث النزاع من حقد وغضب وبغض وادعاء وصلف وأنانيّة محصورة وكلّ شهوة أولها شهد وآخرها علقم . فكان في سلام مع نفسه . والإنسان إذا ما سالم نفسه

سالمه العالم .

هنا — على الأرض — وفي هذا الزمان الذي تمددت معدته وتقلصت مخيّلته ، فراح يمجد السلام بلسانه ويذبحه بأعماله ، تعالوا نَشِـدْ مدينةً للسلام . تعالوا نشدها من قلوبنا في قلوبنا . ولنطوّقها بسور منيع من الإيمان بجمال الحياة وعدلها وكمالها . ولنجعل الفكر النيّر حارساً لها ، والخيال المبدع علَماً يخفق فوق أبراجها . ولنخطّ بأحرف من نور على كلّ باب من أبوابها هذه الكلمات الثلاث :

سلامكم في قلوبكم !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضباب التقاليد

ألقيت في الحفلة السنوية لمدرسة « الفرندز »
الأميركية برام الله ، فلسطين ، في الخامس
من تموز سنة ١٩٣٥ .

قضت التقاليد عليكم — وعليّ — بهذه الحفلة . وللتقاليد سلطان على الناس يكاد يبزّ سلطان القدَر . فالناس أطوع للتقاليد التي ابتدعوها منهم للأقدار التي ابتدعتهم . وهم ، من هذا القبيل ، أشبه بعابد الصنم يبخّر لصنع يديه ويجدّف على الخيال المبدع الذي أوحاهُ إليه . أوَما ترونهم ينقادون إلى تقاليدهم بخاطر طيّب ، وقلب قانع ، وفكر طائع ؟ أمّا الأقدار فيقضون العمر ناقمين عليها وساخطين ، ومعاندين لها ومحاربين . فترتدّ نقمتهم أبداً إليهم ، وتدور رحى حربهم عليهم .

ولو عقل الناس لعكسوا الأمر فأطاعوا الأقدار وتمردوا على التقاليد . لأن الأقدار هي مشيئة الكون المشتركة العاملة في الكلّ وللكلّ . وهذه مَن عاندها فلويله ، ومن أطاعها فلخيره .

أما التقاليد فليست سوى استمرار الناس في ممارسة وجه من وجوه المعيشة على نمط واحد ووتيرة واحدة . وهذه من شأنها أن تصبح على توالي السنين ظُفراً على العين ، وسطاماً في الأذن ، وقفلاً للقلب ، وغلاًّ للخيال . فمن عاندها انتصر . ومن أطاعها انكسر .

لا تعجبوا لقولي هذا . فأنا أرى الحياة نوراً هادئاً يشعّ في القلب ، وأرى التقاليد ضباباً كثيفاً يحجبهُ عن البصر والبصيرة . بل أرى الحياة خيالاً طليقاً لا تحدّهُ حدود ولا تقوم في وجهه سدود . وأرى التقاليد أبداً تحاول حصره في قفص أو حظيرة . ولو أنها اكتفت بذلك لهان الأمر ، لكنها بسحر الاستمرار توهم الناس بأن الضباب هو هو النور ، والحظيرة هي هي الحرية . وهكذا تقيم العَرَض مقام الجوهر والجوهر مقام العَرَض .

لم تَدَعِ التقاليد جانباً كبيراً أو صغيراً من جوانب الحياة البشرية إلاّ احتلّتهُ وهيمنت عليه ، فهناك الفنّ وتقاليده ، والأدب وتقاليده ، والسياسة وتقاليدها ، والاجتماع وتقاليده ، والدين وتقاليده ، والحياة اليومية بكسائها ومأواها ، ومأكلها ومشربها ، وكل حركاتها وسكناتها .

خذوا الولادة مثلاً : هل في السماء والأرض ما هو أدعى إلى التخشع والصمت والعبادة من سر الولادة — سر انبثاق الحياة من الحياة ؟ وما هي الولادة عند الناس ؟ مدعاة للضجّة

والولائم والتهانيء . فأين التخشع وأين العبادة ؟

أيضجّ النسر أم يولم الولائم عندما ينقف فرخه من بيضته ؟ ولمن التهانيء ؟ أتهنيء الأشجارُ في البستان شجرة بثمرة ؟

وأنتَ من أنت أيها الوالد — وأنتِ من أنتِ أيتّها الوالدة — لتحسبا أن الحياة شرّفتكما بأكثر مما تشرف به النبتة أو الطائر أو البهيمة ؟ لقد اختارتكما منفذاً لمقصد من مقاصدها . فلتكن وليمتكما في تفهّم ذلك المقصد . وأنتما عندما تفهمانه تؤثران الصمت على الضجّة والصلاة على التهانيء. أما في قرقعة الولائم ودندنة التهانيء فلن تجداهُ ولن تفهماهُ .

خذوا الزواج : لماذا جعلت الحياة الناس ذكراً وأنثى ؟ هل كانوا كذلك منذ الأزل ويبقون كذلك إلى الأبد ؟ ولماذا ، من بين كلّ ما على الأرض من رجال ونساء ، لا يكون هذا الرجل إلاّ « نصيب » تلك المرأة ، أو هذه المرأة إلاّ « نصيب » ذلك الرجل ؟

إن في الزواج لأسراراً هي كنه الزواج ، وليس فيه ما يدعو إلى الزهو واللهو أو إلى الهرج والمرج ، بل إلى الدهشة والتأمل . ويا ليت الناس يقتدون بالغربان الّتي تتزاوج حيث لا يدري بها أحد حتّى من عشيرة الغربان .

خذوا الموت : هي رهبة لا توازيها رهبة أن يصبح ما هو كائن كأنّهُ لم يكن . وهو جمال ما بعدهُ جمال أن تتحول

الحركة المشوّشة إلى سكون سرّي .

لكنّها رهبة حوّلتها التقاليد إلى مواكب من الناس تتظاهر بالحزن وتسير من بيت الميت إلى المقبرة . ولكنّه جمال كفّنته التقاليد في توابيت بسيطة ومزركشة ، وغيّبته في مدافن بعضها تهزأ بالقصور . وشهدت على موته بثياب الحداد وبطاقات النعوات التي كلما اتّسعت إطاراتها واشتدّ سوادها كانت في نظر التقاليد أصدق شهادةً وأقوى برهاناً .

أجل ، إنها لشهادة صادقة ، ولكن ببلادة التقاليد . وإنّه لبرهان قوي ، ولكن عن سخافة الذين يستعبدون لتقاليدهم . أما الحياة فتسخر بكلّ ذلك لأنها تعرف أن ما هو كائن كائن إلى الأبد — فلا يموت . وأن ما يموت لا كيان له على الإطلاق . والسواد والبياض عندها — كالليل والنهار — سيّان .

خذوا رجلاً أقامه الناس حاكماً عليهم : هم يغدقون عليه الألقاب الضخمة بفراغها ، ويمطرونه وابلاً من التهانىء الرنّانة بريائها . ولو فقهوا لأمطروه وابلاً من التعازي الدامعة بإخلاصها . لأنّه انتُدب ليحكم الناس قبل أن يتعلم كيف يحكم نفسه . ومَن كان كذلك كان أحرى بالشفقة والتعزية منه بالتبجيل والتهليل .

خذوا تقاليد الشرف والمجد والحرية والعدل والفضيلة والعلم وسواها تجدوها كلها أكفاناً للجوهر الذي تحاول تثبيته

وتعزيزه والدفاع عنه . فإن أنتم شئتم الوصول إلى ذلك الجوهر حذارِ من أن تبهركم عنه زركشة أكفانه . مزّقوا الأكفان أولاً . فالشرف الرفيع الذي لا يسلم من الأذى « حتى يراق على جوانبه الدم » ليس شرفاً وليس رفيعاً . إن هو إلاّ ناب وحش ينشب في جلد وحش آخر . أما الشرف الذي هو شرف فلا ينالهُ أذى ولا يغتسل بدماء الغير بل يستحمّ بدم القلب .

والمجد ليس أن تمشي إلى غاياتك الأرضية على أكتاف الناس . إنما المجد أن تحملهم على كتفيك إلى غاياتهم السماوية .

والحرية ليست أن ترى شيئاً أو أحداً عقبةً في سبيلك فتزيل العقبة بالقوة أو بالدهاء . إنما الحرية أن توسّع نطاق خيالك إلى حد أن تراك في كل شيء وكل إنسان . فتصبح العقبات درجات ترقى بها إلى الفضاء الذي لا درجات فيه ولا عقبات .

والعدل ليس أن تأخذ ما لك وتعطي ما عليك . فكل ما لك عليك ، وكل ما عليك لك . إنما العدل أن تعرف أنك أفقر من أن تعطي وأغنى من أن تأخذ .

والفضيلة ليست في حفظك للناموس . إنما الفضيلة أن تحاسب نفسك كما لو كنت تجهل كل شيء إلا الناموس . تحاسب غيرك كما لو كنت لا تعرف حرفاً واحداً من الناموس.

والعلم ؟ لقد أصبحنا ، بمنّة التقاليد ، لا نذكر العلم إلاّ

ذكرنا المدرسة ، والمدرسة إلا ذكرنا العلم . كأنّ العلم لا يستقرّ إلا في شقوق الأقلام ، وبطون الكتب والدفاتر ، وبياض الأوراق وسواد المحابر ، وكأنّ لا مفاتيح لما أغلق من أسراره سوى ألسنة طائفة من حاملي الشهادات المدرسيّة التي تفنّن الناس في تقسيمها وترتيبها وتسميتها تفنناً بلغ قمة من العقم والتمويه ليس يبلغها إلا خيال التقاليد العقيم . فما معنى قولكم بكلوريوس علوم ، أو معلم علوم ، أو دكتور فلسفة أو لاهوت ؟ أليس في ذلك كلّه ما يوهمكم بأن دكتوراً في اللاهوت هو أقرب من الله وأعرف به من رجل يجهل الهجاء ولم يسمع في كلّ حياته بترتوليانوس أو توما الاكويني أو لوثر؟

وقد يكون الله في رأس محراث فلاّح أمّيٍّ قبل أن يكون في رأس دكتور في اللاهوت . وقد تكون في مكنسة لمنظف للشوارع فلسفة تفوق كلّ ما وعاه دكتور في الفلسفة .

ما معنى قولكم : هذا رجلٌ متعلّم ؟

أهو العلم أن تتلاعب بالأرقام صعوداً ونزولاً من الواحد إلى ما لا نهاية لهُ ، وتجهل أن الربواة في الواحد ، وأن الواحد لا وجود له إلاّ في خيالك ، وأنّك أنت ذلك الواحد ؟

أم هو العلم أن تميّز بين المبتدإ والخبر ، والفاعل والمفعول به ، وتجهل أنّك مبتدأ خبره مستتر فيه ، وأنّك الفاعل والمفعول به في آن واحد ؟

أم هو العلم أن تعرف محصولات فورموزا ومدغشقر ولا تعرف محصولات نفسك ؟

أم هو العلم أن تلجم البخار وتمتطيه ، وأن يلجمك غضبك ويمتطيك ؟

أم هو العلم أن تعرف أن الأرض تدور حول الشمس ، والشمس تدور على محورها ، ولا تعرف حول مَن أنت دائر ، ولا المحور الذي تدور عليه أيامك ولياليك .

أيهما أحقّ بالزهرة : « عالمٌ » يشرّحها لك طبقاً للتقاليد العلمية فيفوته جمالها وأريجها ؟ أم « جاهل » لا يعرف حتى اسمها ، لكنه إذ يمرّ بها يحمل جمالها في عينيه وأريجها في قلبه ويمضي في سبيله ؟

هي التقاليد المدنية ضخّمت المدارس في أبصار الناس حتى حجبت عنهم الغاية التي من أجلها كانت المدارس ، وهي تسهيل الوصول إلى غاية الحياة ، لا خلق طغمات من الناس تتعالى بعضها فوق بعض . وقد يكون أعلاها في نظر الناس أسفلها في نظر الله . وأخفّها في ميزان التقاليد أرجحها في ميزان الحقّ .

وهي التقاليد المدرسيّة — ما بين امتحانات وشهادات لات — تورّمت في عين الطالب إلى حد أن أضحى اجتيازه متحانات المدرسية أهمّ في نظره من اجتيازه امتحانات الحياة .

وشهادة معلّميه أثمن من شهادة ربّه . فهو يتدثّر قلبه بالخزي .
ويتمرّغ فكره في غبار الانخذال إذا ما سأله الفاحص عن طول
نهر الكنج فلم يحسن الجواب . وهو يتيهُ عُجباً إذا ما سألته
الحياة عن قدر محبته لقريبه فكان جوابه مكيدة ينصبها لقريبه
فتنجح . وما همّه من الحياة وامتحاناتها ؟ ما همّه من جاره
أحبّه أم أبغضه وليس في حبّه أو بغضه بكالوريا أو أقل من
بكالوريا ؟ أما نهر الكنج فقد ينال من ورائه لقب دكتور
في الفلسفة !

يا ويلنا من التقاليد وتعاويذ التقاليد ! فقد غدونا بمنّتها
نؤثر وريقة سوّدتها يد إنسان على المسكونة التي نوّرها روح الله .

كيف يعتز بشهادةٍ من مدرسة مَنْ شهد الله له بحقّ التمتع
بلاهوته وكلّ ما فيه من عزة لا تدرَك وجمال لا يوصف
وأعطاه مقدرة الوصول إلى حقّه ؟

كيف يباهي بقطعة من رق غزال — أو بورقة مفضضة
أو مذهبة — مَنْ نشر الله فوق رأسه رقّاً بغير قياس ورصعه
بالشموس والكواكب والأقمار ؟

كيف ينسى الذي يمشي جذلاً إلى شهادته المدرسيّة أن
الحياة شهدت له بحقّ المشي على بساط الأرض السحري ؟

كيف يسهو عن بال من يطرب لتصفيق الناس أن أجناد
السموات والأرضين كلها تصفّق في كلّ نبضة من نبضات

قلبه العجيب ؟

والذي يسكر يوماً بشهادة أو لقب تمنحه إياهما جماعة من جماعات الناس كيف يصحو لحظة من سكرة الغبطة العلوية بحصوله على لقب إنسان وشهادة إنسان ؟ — وفي الإنسان تلتقي سائر الأكوان ، وتتلامس أقطاب كلّ الزمان .

أقول ثانية : يا ويل الناس من التقاليد وتعاويذ التقاليد ! هم ابتدعوها لتكون لهم عوناً جميلاً فكانت عليهم عبئاً ثقيلاً . هم اختلقوها لتكون لحياتهم أجنحة قوية فكانت لها أصفاداً جهنمية . جعلتهم الحياة عنصراً واحداً ففرقتهم التقاليد عناصر . وأعطتهم المسكونةَ موطناً فلم يستوطنوا إلاّ الأرض . وهذه جعلوها ، بمنّة التقاليد ، مواطن أو مناطق . وأرضعتهم الوجود من ثدي واحد — هو ثديها — فأنستهم لبانُ أمّهاتهم الصغرى لبَنَ أمهم الكبرى . وأمهم الكبرى ما تزال تعمل كل طرفة عين على فكّهم من قيودهم وردّهم إلى ميراثهم الأكبر .

ها هي تقول لكلّ إنسان : « أنت كل الناس . فلا تقسمهم أجناساً لأنّك إن فعلت قسمت نفسك . ولا تُعادِهم لأنّك لا تعادي غير نفسك . ولا تقاتلهم لأنّك لا تقاتل إلاّ نفسك . وأنت ميراثك الكون . فإن رضيت بالبعض فقد خسرت الكلّ . وإن استأثرت بجزء فاتك حتى ذلك الجزء . »

سلوا خيطاً في ثوب من الأثواب التي على أجسادكم — ما

هو ومن أين هو ؟ تتبّعوه بالخيال ، إذا أمكنكم ، في كلّ أدوار حياته حتى الدقيقة الحاضرة . أولا ترون أن كل عناصر الأرض والسماء قد تكاتفت مع كلّ قوى الإنسان الجسديّة والروحية لتجعلهُ خيطاً في ثوبكم ؟ نعم . سلوا ثيابكم ما هي ومن أين هي ؟ تجدوا أنّكم تلبسون الناس وحياة الناس ، والكون وحياة الكون ، في كل ما تلبسون .

وأنتم لو سألتم لقمةً تأكلونها ، أو قطرةً تشربونها ، ما هي ومن أين هي ؟ لوجدتم أنّكم تشربون وتأكلون عرق المسكونة والناس ، ودماءها ودماءهم ، ولحومها ولحومهم ، في كلّ ما تأكلون وتشربون .

فإن كنتم تحملون الناس والمسكونة على أجسادكم ، وفي لحومكم ودمائكم ، أفما علمتم أنّكم تحملونهم في أرواحكم ؟

فكيف بكم تكبرون على إنسان لمال في جيبكم ليس في جيبه وتنسون أن الله في روحه وأنكم وإياه معاً في روح الله ؟

أم كيف بكم تشمخون بأنفكم على إنسان لأنّكم تحملون شهادة من مدرسة وهو لا يحمل مثلها ؟

أنسيتم أن الحياة قد شهدت لهُ بحقّ التمتّع بكلّ ما في الحياة وأنها لم تشهد لكم بأكثر من ذلك ؟

أم كيف بكم تكرهون إنساناً لأن لونهُ غير لونكم ، أو دينه غير دينكم ، أو لأن البقعة التي يقطنها من الأرض غير

التي تقطنون ؟ أفلا ذكرتم أنكم وإياه ترضعون الوجود من ثدي واحد ؟

إنني أعيذكم من التقاليد وسلطانها . فهي ما خرج عليها أحدٌ إلاّ أنكرتهُ فنبذتهُ ورجمتهُ ، أو صلبتهُ ، أو أحرقتهُ .

هكذا يخرج نبيّ على تقاليد الناس الدينية فيحمل عليه كسحاء التقاليد بعكاكيزهم ، ويجلدهُ عبيد التقاليد بسلاسلهم . وهو ما خرج على التقاليد إلا ليريح الأولين من عكاكيزهم وينقذ الآخرين من سلاسلهم. وإن هو أكرههم على قبوله، ولو بعد أجيال ، قبلوهُ ولكن — من بعد أن يجعلوهُ تقليداً من تقاليدهم .

وهكذا يشذّ عبقريّ عن أوضاع الناس في فن من الفنون فتعمل فيه زنابير التقاليد حُمَاتِها ، وأفاعي التقاليد أنيابها . وإن وجدَتْه أصلب من أن يلين لها لانَتْ هي لهُ ولكن — من بعد أن تجعل شذوذه تقليداً يذهب بقوّته ويتلف تأثيره .

ليت لكم أن تستأصلوا التقاليد من حياتكم فلا تأتمروا إلاّ بوحي الروح ومشيئة القدر . لكن التقاليد أكثر من أن تُحصى . وجذور بعضها أعمق من أن تُستأصل .

قاوموها قدر استطاعتكم . وإمّا عجزتم عن مقاومتها فاقبلوها مثلما تقبل الشمس الغمامة ، والدرّة الصدفة ، والمرأة المحجّبة حجابها . غير ناسين أن وراء الغمامة شمساً ساطعة ،

وفي الصدفة درة ثمينة ، وخلف الحجاب وجهاً عجيباً .

ويا حسن يوم نمثل فيهِ عزّلاً من كلّ تقليد ، سافرين من كلّ حجاب أمام حياة لا سلاح لها إلاّ الحقّ ، ولا حجاب عليها إلا الجمال .

الدين والشباب

ألقيت بالإنكليزية في « وست هول » من الجامعة الأميركية في بيروت تحت رعاية جمعية « برذر هود » (الإخاء) في ٧ كانون الثاني سنة ١٩٣٦ ، وقد نشرت الجمعية الأصل الإنكليزي في كراس على حدة .

أوّل الدين دهشة حسيّة . وآخره نشوة روحيّة .

عتبة الدين سؤالك المحيّر ، الموجع « لماذا ؟ » . أما قدس أقداسه فجوابك الجازم ، المؤنس « لأنّ ! » .

من طلاسم الوهم المتردّي برداء الحقّ يسير الدين إلى حقيقة الوجود التي لا حقيقة إلاّها ، ولا غاية من حياة الإنسان إلاّ الوصول إليها . مَن اتخذ لحياته غاية سواها فقد زوّج قلبهُ من الحسرة النهّاشة ، وسخّر روحهُ للباطل القاسي .

الناس من حيث الدين في مرتبات ثلاث : فهناك الواقفون عند عتبة الدين ، واسمهم الحشد الغفير . ثم المنتشرون بين العتبة وقدس الأقداس ، واسمهم الجماهير . وأخيراً أولئك الذين في قدس الأقداس ، واسمهم النفر المغبوط .

لكلّ إنسان دينهُ . حتى الذين كفروا بكلّ دين ليسوا بلا دين . فدين هؤلاء في كفرهم . ولكن قليل – قليل جداً هم الذين بلغوا قلب الدين الفسيح ، المضياف ، الذي لا حدّ لسخائه ، ولا نهاية لحنانه . ذلك لأن الطريق المؤدية إلى قلب الدين طريق لا يستطيع سلوكها إلاّ الذين اتخذوا لهم دليلاً أصدق وأعرف بالطريق من دليل الحواسّ الخارجيّة .

ولو أنّ كلّ المنتمين إلى الدين بلغوا منتهاهُ وأدركوا لبّهُ لما كان في الأرض غير دين واحد . ولما كان ذلك الدين مجلبة للجدال والخصام والنزاع كما كانت ، وما تزال ، حال الأديان بين الناس . ولتحوّل عالمنا هذا إلى عالم غبطة لا توصف .

لكنّ لبّ الدين غير لبّ الجوزة . فهو لا يُبصَر بالعين ، ولا يُلمَس باليد ، ولا يُسحق بالأضراس ، ولا يُهضم في معدة من لحم ودم .

وملمّة الناس الكبرى بأديانهم هي جهلهم تلك الحقيقة وحسبانهم لبّ الدين كلبّ الجوزة – كشيء في مستطاع أيّ كان أن يتناوله ويمضغه ويهضمه . حتّى إن واحدهم ليحسبها إهانة منك فظيعة إذا أنت تجاسرت ولمّحت لهُ أن أضراس عقله قد لا تكون من الصلابة حيث تمكّنه من مضغ لبّ الدين ، ومعدتهُ قد لا تكون من النشاط حيث تقوى على هضمه .

ههنا جحر الأفعى التي تنفث سمّها في أوردة الأديان البشريّة .

ههنا السبب الذي يحمل الكثير من ذوي الأفكار السطحيّة على القول بأن الدين قد أشهر إفلاسه .

يكتشف عالم رياضي قضية رياضية جديدة ويعلنها للناس قائلاً أن ليس بينهم من يستطيع فهمها غير عشرة أو اثني عشر . فلا يُهان أحد منهم إذا ما قلتَ له إنّهُ قد لا يكون من الاثني عشر . بل قد يحسبك هازئاً به إذا أنت سألتهُ أن يشرح لك تلك القضية .

ويناولك صديقٌ ساعةً بسيطة الصنع والتركيب ، ويسألك إصلاح دولاب صغير فيها زاغ عن مركزه . فلا تخجل من أن تعترف له بأنّك تجهل صنع الساعات وتركيبها كل الجهل .

ولكن يقوم في الناس نبيّ ويعلن اكتشافه لحقيقة الوجود التي هي الله فيلتفّ حوله الناس ، ويعتنقون حقيقته كما لو كانوا هم الذين اكتشفوها . ويروحون يحلفون بالنبي وحقيقته ، ويقتتلون من أجلهما ويستشهدون . وأنتم لو سألتم أحقرهم وأجهلهم هل هو فاهم للحقيقة التي جاء بها النبيّ لما تردّد لحظة في جوابكم بالإيجاب . بل قد يأخذ سؤالكم مأخذ الاستهانة والإهانة فيردّ لكم الإهانة والاستهانة مع الربا . وفي ذلك من عجب ما فيه .

أيّ الأمرين أصعب : أن تفهموا قضيّة رياضية تنقاد إلى البرهان ، مهما تعقّد ، أم أن تفهموا حقيقة الوجود التي تتسامى عن كلّ برهان ، لأنها برهان في ذاتها لذاتها ؛ وينشلّ معها المنطق ، لأنها أبعد من كلّ منطق ؛ وتتفكّك مفاصل الكلام ، لأنها أوسع من أن يستوعبها أيّ كلام ؟

أيهما أيسر : أن تعرفوا سرّ آلة صغيرة كالساعة ، مهما دقّ تركيبها ، أم أن تعرفوا سرّ المسكونة بأسرها ؟

لذلك أقول لكم : لا تخدعوا أنفسكم ! لا تظنّوا أنكم بلغتم قدس أقداس الدين بانتمائكم إلى هذا الدين أو ذاك من أديان الأرض .

لا تتوهّموا أنكم وجدتم الله لأن اسمه على شفاهكم . فأنتم لو ردّدتم ألف مرّة في النهار « أبانا الذي في السموات » لا تظفرون بلبّ الدين ما لم تعرفوا أباكم الذي في السموات مثلما عرفه الذي جاء ليقودكم إليه .

وأنتم لو صلّيتم وسلّمتم على الرسول بغير انقطاع لما كنتم من الدين في شيء ما لم تعرفوا المرسِل مثلما عرفه المرسَل .

وأنتم لو قدّمتم ليهوَه موسى ذبائح بلا عدّ لما دخلتم قدس أقداس الدين ما لم تعرفوا يهوه مثلما عرفه موسى .

أتشبع أجسادكم الطاوية إذا ما غيركم أكل الخبز فشبع ؟
أم ترتوي أمعاؤكم الجافة إذا ما غيركم شرب الماء فارتوى ؟

فكيف لأرواحكم الغرثى والعطشى أن تغتذي بالحق أو ترتوي منهُ لمجرّد تشيّعكم لنبيّ تذوّق الحقّ فاغتذى ، ونهل منهُ فارتوى ؟

لو أن أنبياءكم ما عرفوا الله الذي جاؤوا ليهدوكم إليهِ لما كانوا جديرين حتى بأن تذكروا أسماءهم . لكنهم عرفوه وجاؤوا ليعلّموكم كيف تعرفونه . وإيمانهم به لم يكن استسلاماً بغير معرفة . بل كان معرفة بلغت من تعمّقها قرار الاستسلام . فكلّ من عرف الحقّ استسلم له . وكل من استسلم للحقّ تحرّر من الباطل .

إنما الإيمان الصحيح والمعرفة الصحيحة اسمان لمسمّىً واحد . فأنتم لا تعرفون شيئاً إلاّ متى خبرتموهُ وفهمتموه . وأنتم متى خبرتم شيئاً وفهمتموه آمنتم به .

أما إذا آمنتم بشيء قبل أن تخبروه بأنفسكم وتفهموه بأرواحكم كان إيمانكم كالعين الضريرة التي لا تنفي وجود الشمس ، أو كالأذن الصمّاء التي تسلّم بوجود الصوت . إنّ إيماناً كهذا لإيمان أعمى أصمّ . لكنهُ أفضلُ بكثير من اللاّ إيمان .

ما كان الأنبياء ليعرفوا الله لو لم يكن الله فيهم . لأنّهُ يستحيل على الإنسان أن يدرك ما كان خارجاً عن نطاق وجوده .

ولو لم يكن الأنبياء واثقين من وجود الله في كل إنسان لكان أقل سخافةً منهم أن يكرزوا بالفن على الحجارة ، وبالفلسفة على القرود ، من أن يكرزوا بالله على خلائق خالية من الله . إذ كيف للظلمة أن تفهم النور ؟ كيف للباطل أن يعرف الحق ؟ أم كيف للمتناهي أن يستوعب اللامتناهي ؟ إنما النور وحده يفهم النور . والحق وحده يعرف الحق . واللامتناهي يستوعب اللامتناهي .

إنما الله وحده يستطيع أن يعرف الله .

هو الإله الكائن في الأنبياء الذي عرف وكشف إله الأنبياء . وهو ذلك الإله نفسه الكائن في كل إنسان الذي في قدرته أن يعرف الله في كل شيء وفي كل إنسان .

تقولون لي : « إذن كيف لنا ، ولسنا أنبياء ، أن نعرف الله ؟ أنصبح كلّنا أنبياء ؟ »

أوما سمعتم بوحي الأنبياء ، أو نشوة الأنبياء ، أو غيبوبة الأنبياء ؟

هي حالة روحية تنعقد فيها ألسنة الحواس المبلبلة ، وتخرس أصوات شهواتها الصاخبة ، وتخمد نيرانها المتأججة ، وتنشل عضلاتها الثائرة ، فيشعر الإنسان كأنه ليس من لحم ودم . فيبصر — وعيناه شاخصتان أو مغمضتان — ما ليس تبصره العين . ويسمع — وأذناه مفتوحتان أو مسدودتان —

ما ليس تسمعه الأذن .

تنحلّ عنهُ قيود الزمان ، فيرى ذاتهُ في كلّ زمان . وتنهار حواليه حواجز المكان ، فيراه في كل مكان . بل إنّه يشعر كأنْ ليس زمان أو مكان ، ولا موت ولا حياة ، بل كينونة لا حدّ لها ولا قياس . لا توصف بقلم ولا بلسان . كلّ صوت منها ولا صوت لها . كل شكلٍ فيها ولا شكل لها . كل لون فيها ولا لون لها . كل حركة منها وهي هادئة أبداً . كل كيان فيها وهي فوق كل كيان . وكل شيء فيها وهي لا شيء .

عجيبةٌ هي غيبوبة الأنبياء إلى حدّ أنّه حتّى اليوم لم يمشِ على الأرض إنسان تمكّن من وصفها . فإمّا قرأتم ما قاله الأنبياء فاعلموا أنّكم لا تقرأون سوى رموز ضئيلة ، متقطعة ، لما خبروهُ وعرفوهُ بالروح . وأنّكم لن تفهموا كل ما تبطنت به تلك الرموز من الحقّ والجمال إلاّ متى استطعتم أن تسلخوا أنفسكم عن أنفسكم مثلما سلخوا أنفسهم عن أنفسهم . وهم لم يبخلوا عليكم بالدلائل لسلوك الطريق التي سلكوها .

ما تلكم الطريق — طريق الرؤى النبوية — بالطريق السهلة . من سلكها كان كمن جاء البحر ليستحم فابتدأ بنزع أثوابه ثوباً بعد ثوب . لكنما الأثواب التي تُثقل الروح وتعرقله في مسيره إلى الله أكثر بما لا يقاس من الأثواب التي تغطي

الجسد ، وفي نزعها مشقات أين منها مشقات نزع الثياب المألوفة . أألمّح لكم عن بعضها ؟

هناك ثوب البغضاء الذي لا بدّ من نزعه . فالبغضاء وهدة تفصلكم عن الإنسان أو الشيء الذي تبغضون . وما دمتم منفصلين عن أي شيء أو أي إنسان بقيتم منفصلين عن الله الكائن في ذلك الشيء وذلك الإنسان .

حين أن الحبّ عبّارة تصلكم بمن تحبون وبما تحبون . فكلما تكاثرت العبّارات التي تمدّونها من قلوبكم للناس اقتربتم من ذواتكم الحقة ، وبالنتيجة ، من الله الساكن فيكم . وكلما ازدادت واتسعت الوهدات في قلوبكم وأفكاركم بينكم وبين الغير طالت غربتكم عن ذواتكم ، وبالنتيجة ، عن الله الذي لا ذات لكم إلاّ فيه .

كلّ ما تحبونهُ هو صديق لكم . وكلّ ما تبغضونه هو عدوّ لكم . فأي الأمرين أفضل : أن تبغضوا فتكونوا أبداً في حرب ، أم أن تحبوا فتكونوا أبداً في سلام ؟

وهناك أثواب الحسد ، والطمع ، والفسق ، والكبرياء ، ومحبة المال ، وكلّ لذة — أو ألم — تغتذي جذورهما بما هو عرضة للانحلال والفساد والتعفّن . كل هذه عقالات للروح وحجارة رحى في عنقه . والله ليس في شيء منها . أما السبيل إلى الله فسبيل التعرّي .

مزّقوا أغشية الأوهام الحسيّة عن عين الروح تبصروا الله .

طهّروا أذن الروح من ضوضاء الحواس تسمعوا الله .

من انتصر على نفسه كان الله جائزة انتصاره .

أتمجّدون قائداً ربح معركة كبيرة في حرب كبيرة ؟ إنه لمجدٌ فارغ . إنما المجد لإنسان ربح معركة مع نفسه .

أتستعظمون رجلاً أنار الظلمة في مساكنكم ؟ إنها لعظمة قزمة . إنما العظمة لمن أنار الظلمة في قلبه أو قلب سواه .

أتستلذون طعاماً أم شراباً أم عملاً أم أي سعي من المساعي الأرضية ؟ إنها للذة جوفاء . إنما اللذة التي ما بعدها لذة لَفي نشوة تقصيكم عن ذواتكم الفانية لتدنيكم من ذواتكم التي لا تموت . تلك هي النشوة الروحية التي يجد فيها الدين غايته ومعناه واكتماله . وذاك هو السبيل إليها — سبيل تعرية الذات — سبيل تطهير الذات .

ألست أسمع عالماً بينكم يقول لي : « أين برهانك ؟ »

أسفاه يا عالمي الكريم ! ليس لك برهان عندي . إنما لك برهان عند نفسك ، لو أنت شئت أن تكلفها عناء التفتيش عنه .

كم سنة من سني عمرك أحرقتها كيما تتمكن من أن « تبرهن » لذاتك كيف ينمو النبات ويتكاثر ، أو كيف تدور

الأجرام السماوية في أبراجها ، أو كيف تتحد العناصر الكيميائية وتفترق ؟ لقد أجهدت جسمك وعقلك أيما إجهاد قبل أن توصلت إلى معرفة ما تدّعي معرفته الآن .

تلك هي طريق العلم — طريق المختبر . لقد مشيتَها بثبات وصبر وإخلاص . وأنت ، مع ذلك ، ما تزال بعيداً — لله ما أبعدك ! — عن « لأن » ذلك الجواب الحاسم ، المؤنس الذي تضيع فيه كل « لماذا » و « من أين » و « إلى أين ؟ » .

والآن دعني أسألك : كم شمعة أحرقت يا صاحبي — ولا أقول كم سنة — كيما تخبر الله في نفسك ؟ أم تريدني أن أقول كيما « تبرهن » عن الله لنفسك ؟

كم مرّة صوّبت مجهر روحك ومرقبه إلى باطنك ؟

كم مرة لُطمتَ على خدّك الأيمن فحوّلت الأيسر كذلك ؟

كم مرة ألجمت غضبك ، وأجَعْت بغضاءك ، وخنقت طمعك ، وفرضت الصوم على أهوائك الأرضية ؟

كم موقعة خضت في بريّة نفسك مع الشيطان الذي في نفسك ؟

وكم مرّة عرّيْت روحك من جلابيب الكبرياء والمجد الباطل والتمسّك بذاتك المائتة ؟

إذا كنت لم تفعل شيئاً من كل ذلك ؛ إذا كنت لم تسلك إلى الآن سبيل تطهير الذات فكيف لك أن تشكّ في نهايتها أو

أن تنفيها ؟

وأنت يا صاحبي لو كنت تعرف مختبر الروح لطلّقت من أجله مختبرك الآخر . فتريّث – تريّث طويلاً – قبل أن تُقدِم على نفي شيء لم تخبره بنفسك بعد . لكن سيأتيك زمان – وهو آتٍ كل إنسان – فيه تسلك حتّى النهاية سبيل النشوة الروحيّة ، سبيل الذين يرون رؤى ، سبيل الأنبياء . لأن الله الذي هو أنت وأنا وكل إنسان سيقيم له من سلالة آدم سلالة أنبياء . – بلى . وأكثر من أنبياء .

تلك هي رسالة الدين . بل ذلك هو الدين .

فما هو قسط الشباب من هذا الدين أو قسط هذا الدين من الشباب ؟

أنا أعلم ، وأنتم تعلمون ، وجهة نظر المتشائمين في كلّ زمان ، لا سيما في هذا الزمان . وأنا أسمع ، وأنتم تسمعون ، أصواتهم المتهدّجة حنقاً على رذيلة سطحية ، أو غيرةً على فضيلة موهومة .

أولئك هم المصلحون الذين لم يُصلحوا أنفسهم بعد . أولئك هم المتدينون الذين تكرّموا على الله فأجّروهُ مسكناً في مكان معلوم ، ومنحوهُ عمراً ، وسلّحوهُ بباسبورت ، ووضعوا على عاتقه مهمّات لا تحصى ، أوّلها وأهمّها أن يصغي دائماً لصلواتهم – وما أطولها ! وأن يجيب طلباتهم – وما أكثرها !

أولئك هم الناعبون دائماً أبداً: « شبابنا منغمس في الفحشاء . شبابنا لا يعرف لهُ مَثلاً أعلى غير مثل الملذات الجسدية . شبابنا لا يعرف الله . شبابنا سائر بخطوات سريعة إلى جهنم . »

ما لكم ولهم . إنهم لا بدّ من أن يجدوا أنفسهم — يوماً ما .

الشباب هو عهد الفيضان — فيضان أشواق الروح وشهوات البهيمية . فيضان نور الأمل وظلمات اليأس . فيضان حرارة الإيمان وحمّى الشكّ . فيضان الحبّ المستسلم والتمرّد الغضوب.

الشباب هوعهد الاندفاع . من شاء أن يلجم اندفاع الشباب أحرِ بهِ أن يلجم العاصفة . والذي يرغب في توجيه فيضانه نحو محجة واحدة عليهِ أن يحبّب محجته إلى الشباب ويحملهُ على الإيمان بها ، لا أن يفرضها عليهِ فرضاً .

فالشباب لا يطيق ما يُفرض عليه ، ولا يأتمر إلاّ بمشيئة الحياة المتدفقة في داخله . وإذا ما فترت همّته نحو عقيدة أو مذهب ما فلأنهُ لا يحسّ في تلك العقيدة أو ذلك المذهب بما يدفعه إلى اعتناقهما بشوق وحرارة . لكنهُ إذا ما آمن بمثل أعلى غرسهُ في قلبهِ ورواّهُ بعصير حياته .

هو الشباب حَمَلَ بشارة الصليب إلى كلّ أقطار العالم وتحمّل في سبيلها الرجم والسجن والصلب وكل أصناف العذاب.

هو الشباب سار بالقرآن من قلب الجزيرة العربية إلى قلب الأندلس في الغرب والصين في الشرق .

هو الشباب فرّش – وما يزال يفرش – جسده الحي على الجمر والشفار ليجعل منهُ بساطاً ناعماً لأقدام خيالٍ بديع اسمه الحرية .

والشباب ما برح شباباً . هو اليوم مثله في الأمس . وسيكون في الغد مثله اليوم . ينقاد ، ولكن إلى ما يحب . ويستقتل في سبيل ما يحب . وينفر ، ولكن مما يكره . ويقاتل كل ما يكره . وأبداً يطمح إلى الحريّة . فعلى من شاء تقريبه من الدين أن يجعل الدين أوسع من المذهب وأفسح من المعبد .

عليه أن يبيّن للشباب بمحبّة لا حدّ لصبرها أنّ سبيل الدين هو السبيل الأوحد إلى الحريّة ، وأن باب المعبد – مهما يكن مقدساً – ليس بالباب الوحيد إليها . عليه أن يمشي بالشباب من دهشة الحسّ إلى نشوة الروح . من وحشة الحيرة العضّاضة إلى أنس الإيمان الحنون . من تشويش وآلام « لماذا ؟ » إلى سلام وغبطة « لأنّ » – من الله في المعبد إلى الله في القلب . وإذ ذاك تصبح كلّ عثرات الشباب ، وكل سيئاته ، وكل آثامه درجاتٍ يرقى بها إلى حريّته المثلى – إلى ذاته الكبرى – إلى الله .

ذاكم هو الدين الذي أعرفه وأشهد به . فمن العبث أن تسألوني عن المحلّ الذي يجب أن تُحلّوه من حياتكم . إذ لا محلّ في الحياة لغير الدين . فما هو بالشيء الذي يمكنكم وضعه على الرفّ عندما تنطلقون في النهار إلى شتّى المقاصد والأعمال .

ولا هو بالشيء الذي تتناسونهُ إلاّ في أوقات الصلاة . أو تخبئونه تحت الوسادة عندما تستسلمون للنوم .

فأنتم ما لم تعبدوا الله في كل ما تعملون وتفكرون وتشتهون لن تدخلوا قدس أقداس الدين . أفترضون أن تبقوا إلى الأبد متسوّلين خارج الباب ؟

لقد كلمتكم في الدين وحاولت أن أدلّكم على معناه بأقلّ ما أمكنني من الكلام وأبسطه . لكنني أعرف أن في كلّ كلام — لا سيما عن الدين — فخاخاً ومزالق كثيرة . وإني لأستغفركم كلّ كلمة جاءت فخّاً أو مزلقة لأحد منكم ، من حيث قصدتها أن تكون بساطاً ناعماً لأفكاركم وجناحاً قويّاً لخيالكم .

وإمّا ودّعتكم الآن فلكي نعود ونلتقي في ذلك الفضاء الأوسع حيث لا حدّ ولا قيد ولا وداع .

على ضريح رفيق

ألقيت عند دفن سابا عريضة ، شقيق
الشاعر نسيب عريضة ، وقد توفي في نيويورك ،
ربيع سنة ١٩٢٢ .

أيها الرفيق الحبيب !

ما أفصحك ساكتاً ، وأعياني متكلماً ! وما أحراك بالوعظ وأحراني بالصمت والإصغاء !

لست أبكيك ، لأنك حيث أنت في غنى عن الدموع . فأنت حيّ في وجداني كما أنك حي في وجدان البقاء . وإن يكن في عيني دموع فأنا أحقّ بها منك . لأنك قد تجرّدت من شهواتك . أما أنا فلا أزال في مهبّ شهواتي كذرّة في مهبّ الريح . ولقد تركتَ مطامعك على الفراش الذي لفظتَ عليه آخر أنحابك . أما أنا فلا أزال أذهب إلى فراشي فأجد مطامعي تحت وسادتي . وأقوم من فراشي فألبسها بين طيات ثيابي . وأجلس إلى مكتبي فألاقيها بين محابري وأوراقي . ولقد نزعتَ خوف الموت . أما أنا فلا أزال قصبة مرتجفة على سبيل الموت والحياة .

لا ، ولست أحزن عليك ، لأني أجدر بحزنك عليّ منك بحزني عليك . وكيف أحزن وأنا أقول مع الرسول : « يا إخوة لا تحزنوا كمن لا رجاء لهم » ؟

ولست أعدّد صفاتك ، لأني أجهل صفات نفسي . لكنّ في الكون سجلاً يحفظ صفاتي وصفاتك وصفات كل بشر . وأنا قاصر عن استيعابه . لذلك أُحجم عن أن أُقيم من نفسي حَكَماً على خيرك وشرّك . وأنّى لي ذلك وأنا أجهل شرّ الحياة وخيرها ؟

ها أنت في لحدك . وأنا واقف على حافّة لحدك . فما الفرق بيننا ؟

إن جسماً أعطتكهُ الأرض تسترجعهُ اليوم الأرض . وكأنها يوم أعطتك إياه قطعت على نفسها ميثاقاً أن تتغذى به وتغذيه . لكنها لم تجعله هبة أبدية لك . بل تركت لنفسها الحقّ باسترداده حين تشاء . ولقد برّت بوعدها فغذتك بأثمارها ، وعطّرتك بأزهارها ، وظللتك بأشجارها . واليوم تستعيد جسمك إلى حضنها لتغذي به أعشابها وأزهارها وأشجارها . أما أنا ، فلغاية لست أدركها ، لا تزال هذه الأرض تتغذى بجسمي وتغذيه . وستأتي ساعتي فتكفّ الأرض عن تغذية جسدي وتأخذه غذاء لها .

لقد عاد جسدك إلى الأرض . ولا حيف في ذلك ولا غبن .

أما روحك التي انبعثت من الروح الكبرى فالأرض أضيق من أن تسعها . وأضعف من أن تدّعيها .

لقد زالت عن عينيك غشاوةٌ لا تزال على عينيّ . فأنت – حيث أنت – ترى ما لا أراه ، وتسمع ما لا أسمعه ، وتشعر بما لا أشعر به .

ها هي القبور من حولك معشبة مزهرة . فهل هي تبكي أم هي تضحك ؟ لعمري لا هي ضاحكة ولا هي باكية . بل ماثلة لقوّة الوجود التي لا تعرف فرحاً ولا حزناً. ولا عدلاً ولا ظلماً.

ها هي السماء قد أمطرتنا في هذا الصباح مدراراً . فأين القطرات التي هبطت من السحاب؟ لقد تغلغل بعضها في التراب. وتصاعد بعضها إلى الجوّ . ولكنّ يداً خفيّة ستعود بها من مخابئها ، إن لم يكن اليوم فغداً ، إلى البحر الكبير الذي انفصلت منهُ .

ونحن ، مَن نحن ، إلاّ قطرات انفصلت من بحر الوجود الأعظم ؟ ومهما تقادمت بها الغربة ، لا بدّ لها من العودة إلى البحر الكبير ، إلى حضن خالقها .

لا ، لست أبكيك ولا أحزن عليك ، لأنّك حيّ في وجداني كما أنت حيّ في وجدان البقاء .

ولا أودّعك الوداع الأخير . بل أقول – إلى اللّقاء يا أخي ، إلى اللّقاء !

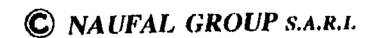
زاد المعاد

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
الأوثان
لقاء
صوت العالم
النور والديجور
مذكرات الأرقش
كتاب مرداد
النبي (ترجمة)
في مهبِ الريح
دروب

أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون (٣ أجزاء)
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
أحاديث مع الصحافة
نجوى الغروب
رسائل
من وحي المسيح
ومضات (شذور وأمثال)

The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs Of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve Other Stories.



NAUFAL BLDG. MAMARI Str. P.O.BOX 11-2161 BEIRUT-LEBANON
PHONE. 354898-354394. TELEX NAUSTN 22210 LE.

Mikhail Naimy

Food for the Godward Journey

Talks





زاد المعاد

إذا كان لكل أمة أن تزدهي بكتابها وشعرائها، وأن تباهي بعباقرتها وفلاسفتها ومفكريها، فقد حق لنا نحن أبناء الأمة العربية أن نضع ميخائيل نعيمه في رأس مفاخرنا الروحية والأدبية في هذا العصر.

إن ميخائيل نعيمه مدرسة إنسانية فريدة ومذهب مضيء من أنبل مذاهب الفكر الإنساني العربي والعالمي.

"**زاد المعاد**" كتاب جمع فيه ميخائيل نعيمه زبدة آرائه في الناس وعلاقتهم بعضهم ببعض، بالطبيعة وبالله. وذلك في أسلوب هو الغاية في السمو والوضوح. إنه منارة مشعة في الأدب، ورفيق لا غنى عنه لكل من تضنيه أسرار الحياة، فينبري باحثاً عن واحات الخلاص ودروب الهداية وسلام النفس والفكر.

الناشر